التجربة الأولى ٢٠١٠/٧/٢٤

التصحيح الأول

الكتاب العربي وتحديات الثقافة

على مشارف القرن الحادي والعشرين

محمد عدنان سالم

المحتوى

تقديم

مع نهاية القرن العشرين، وعلى أعتاب قرن جديد، ما الذي يشي به الواقع بصدد المستقبل القريب، لا شك أن الصورة قاتمة لأول وهلة، وخاصة من خلال معطيات معينة. ولكن هل تجثم الصورة القاتمة على قلوبنا لتخمد بقايا الجذوة؟ وهل أصبح الواقع في حالة تدفع إلى القنوط واليأس المفرط، بحيث نستسلم ونخلد إلى الجمود والعالم يسير بوتيرة متسارعة أكثر يوماً بعد يوم. ما ذلك عهد الله بنا وقد نعتنا بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٠]، فما نحن فيه ليس إلا نتيجة توزعنا ما بين سلوك اتكالي منغلق، لا يقوم بأي عمل إنما يتمنى على الله الأماني، وبين سلوك منفتح بإفراط إلى درجة التخبط والتبعية العمياء، ويحتدم الصراع دون وازع من فهم أو إدراك، حتى التاريخ أصبح مادة للمتعة العقيمة، نجتره اجتراراً مسيئاً بحقه، دون أن نعتبر به وبأحداثه.

أمام هذا الواقع.. ما موقف الناشر؟ وما المهمة التي يضطلع بها؟ وكيف له أن يخلق المناخ الملائم لتجاوز أمراض الكلالة والتبعية واستبداد الأفكار المتصارعة؟

لعل الناشر أكثر المعنيين بهذا الواقع؛ وبإصلاحه فالأمر يتطلب استجابة تشجيعية من الواقع، لأن ما لا يقرأ لا ينير العقول مهما كان قادراً على التنوير. وارتباط الناشر بالإصلاح يتعلق بمنهجه في النشر وترفعه عن نشر السفاسف مهما كانت رائجة، وحرصه على احترام مهنته والكتاب الذي يصدره.. إنه صلة الوصل بين مصادر الوعي (الكتاب والأدباء والمفكرين) وموارد الوعي (جمهور القرّاء)، وعندما يرتقي بدوره فإنه ييسر السبل ويمهدها أمام الوعي، ليدخل في ثنايا المجتمع، ويشحنها بما يدفعها إلى ارتقاء سلم الوعي والحضارة.

الأستاذ الأديب والناشر محمد عدنان سالم يتميز بكونه ناشراً على قدر كبير من الثقافة وعمق الفكر ودقة تشخيص الواقع. وهو يجمع بين الناشر الإداري الناجح، والناشر الملتزم تجاه أمته وعقيدته، لذلك نجده متابعاً حريصاً لكل تفاصيل النشر بدءاً بالتقييم، ومروراً بالتصحيح والتدقيق والتوثيق والإخراج والتجليد والتوزيع، إلى أن يصل الكتاب إلى يد القارئ. بل إنه يحرص على التواصل مع القارئ أيضاً من خلال ما ابتكره من أساليب

حضارية تجعله على صلة بوعيه وهواجسه، كمثل استبانات الرأي وغيرها، من مرافقات أي كتاب يصدر عن الدار التي يديرها. وفي تعامله مع الجديد في عالم الأفكار والنظريات محلياً وعالمياً، ومتابعته الدقيقة لتطوراتها وآثارها، يحرص كذلك على متابعتها من خلال إصدارات الدار حيث يقدم الاقتراحات ويثير الإشكالات أمام مجموعة من كبار الكتاب الذين ينشر لهم. بل إنه لا يتوانى عن استقطاب الجهود المميزة ليبسر لها نشر أفكارها في أفضل ثوب.

ولعل أكثر ما يميز الأستاذ سالم هو اعتناؤه الخاص برفد جانب يعاني إهمالاً فظيعاً في المكتبة العربية وربما الإسلامية، وهو: الدراسات التي تعنى بدراسة واقع النشر وهمومه، وتداخلها مع أزمات الواقع تأثيراً وتأثُّراً، وهو بذلك ينبه الناشر والمجتمع إلى الدور الريادي للناشر الذي تتداخل مهنته مع نمو الوعي والتطور المعرفي. وبذلك يسهم في خلق واقع أكثر رسوخاً والتزاماً للنشر. وحرص الأستاذ سالم على تلازم مسارات النشر، والتعاون بين الناشرين بمهنة النشر، والارتفاع بها عن مستنقع النشر التجاري والنزعات الاستهلاكية الوضيعة في عالم النشر، يمثل إحدى طرق حماية سوق الكتاب من تسرب الغثاثة إليها.

وكذلك فإن اهتمام الأستاذ سالم بقراصنة الكتاب، وحرصه على تنبيه المجتمع إلى الدور الخطير الذي يلعبونه، ويهددون به ثقافة الأمة بأكملها، إرضاء لمصالحهم الضيقة ونزعاتهم اللصوصية، وانشغاله بمعالجة هذه الظاهر، التي استحوذت على فكره ووقته وأصبحت هاجساً مؤرقاً له، ليعد وعياً مبكراً بخطورتها. ذلك أن قراصنة الكتاب (المزورين) في نظره إنما يسرقون جهد المبدع؛ كمؤلف وناشر، مما يضعف من فعالية المؤلفين والناشرين على حدّ سواء لما يشكله من غمط لحقوقهما، وحرمان لهما من ثمرات جهودهما ويفتح ثغرة كبيرة يتسرب منها ما تبقى من الوعي في أمة ﴿اقْرَأْ﴾.

والناشر الأديب محمد عدنان سالم سبق له أن طرح أفكاره في عدد من الكتب منها: (القراءة أولاً) وفيها يركز على أهمية القراءة للخروج من مآزق العصر والتطلع إلى مستقبل أفضل، ومنها (هموم ناشر عربي) وفيه صورة دقيقة عن واقع النشر في الرقعة العربية الإسلامية، ومنها (مراتع المؤمنين) وفيه قراءة جديدة للأحاديث الواردة في كتاب رياض الصالحين تتجلى في استخلاصه عصارتها مع ترتيبه لها ترتيباً يوافق حاجات المسلم في هذا

العصر، ومنها الكتاب النادر الذي أرقه طويلاً حتى تم إنجازه بإشـــرافه وهـــو: (المعجـــم المفهرس لمعاني القرآن العظيم) وهو موسوعة للمعاني الواردة في كتاب الله الكريم، تمثـــل جهداً فريداً وعصارة تجربة طويلة ورغبة عتيقة ملحة، لا تيسر للباحث سهولة الوصول إلى المعاني فحسب، بل تفتح المجال أمام دراسات أكثر عمقاً وجدّة.

وفي كتابه هذا مقالات وشذرات سبق أن قدمها كمحاضرة أو مشاركة أو تقديم أو حوار أو مقالة.. يجمع بينها ذلك الهم الثقافي، والفهم الحضاري، والمعالجة الحكيمة، لأهم القضايا التي تواجه عالم النشر وعالم الثقافة في عصرنا الراهن. فمن تفنيده للغرابيل الـــتي تواجه الكتاب دون أي وجه حق أو وعي، إلى بحثه عن الغربال المفقود. وفي تأكيده على تلازم التنفيذ الفاعل مع التخطيط السليم. وفي بحثه عن أسباب ونتائج مرض (عوز القراءة المكتسب) وطرق معالجته. وكذلك في تقديمه لندوتين متتابعتين من نـــدوات دار الفكـــر اللتين ركزتا على أهمية الحوار وضرورة التغيير، إضافة إلى نظرته العميقة كناشر إلى التراث وطريقة تقديمه، وفي سلسلة مقالاته وحواراته المتعلقة بعالم النشر، ما يجعل كتابـــه هـــذا إضافة حقيقية إلى المكتبة العربية، إذ هو يجمع بين التجربة الطويلة والفهم العميق، وبذلك يكتسب أهمية عامة لما يتعرض له من قضايا مشتركة، وكذلك أهمية استثنائية لما يتناوله من هموم الكتاب، وصناعة النشر على وجه الخصوص.

المحرر

عبد الواحد علواني

الفصل الأول

غرابيل الكتاب

ومستقبل صناعة النشر

١-غرابيل الكتاب[1]

قد يكون موضوع هذه المحاضرة تشخيصاً يفتقر إلى وصفة علاج، أو ربما أحلاماً تبحث عن تجسيد لها في الواقع، أو مثاليات ألف الواقع إهمالها والهروب منها، أو توصيات لا تلقى استجابة فعلية، ولكنها تمثل مفاصل حلم يتملكني، وتشكل ثنايا هاجس لا يفارقني، لعل هذه الأحلام تقترن بالعزيمة الصادقة والجهد الدؤوب والصبر الواثق والاستمرار الملح، فتتكلل ذات يوم – أرجو ألا يكون بعيداً – بالتطبيق السليم الذي يكفل وضعنا على خارطة التاريخ مجدداً، أو لعل الأطاريح المسكونة بالأمنيات تُؤتي أُكلها ذات حين، فتستل حاضرنا المؤسف من براثن الكلالة والتبعية والخمول، لتضع أمتنا على الطريق الصحيح.

يعد العالم العربي أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة، يفترض – إذا أخذنا بالقول المأثور (طلب العلم من المهد إلى اللحد) – أنهم جميعاً يقرؤون، على اختلاف أعمارهم بحاجة إلى الكتاب.

ووراء العالم العربي، عالم إسلامي تجاوز عدده المليار نسمة يفترض أن يتداولوا الكتاب العربي، ولو بنسبة ضئيلة تلبي حاجاتهم الدينية، لفهم القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى قرآناً عربياً، وفهم كلِّ ما دار حوله من تفسير وأحكام بلغة العرب.

وخلف العالم العربي والإسلامي يقوم عالمٌ متعطش إلى المعرفة، مولعٌ بجمع المعلومات وتصنيفها، وتحليلها وتركيبها، إثراءً لمخزونه المعرفي من جهة، ولكي يعرف كيف يتعامل مع الآخرين من جهة أخرى، فهو يحتاج إلى الكتاب العربي لتزويد مكتباته، ومراكزه العلمية، ومؤسساته الاستشراقية.

---

[1] محاضرة ألقيت في المركز الثقافي العربي بدمشق على هامش معرض مكتبة الأسد الحادي عشر للكتاب بتاريخ ١٦/٩/١٩٩٥.

لهؤلاء جميعاً، يطبع الناشر العربي من أكثر عناوينه رواجاً، كمية لا تتجاوز عشرة آلاف نسخة في أحسن الظروف، أما عناوينه العادية، فقد ينخفض عدد النسخ المطبوعة منها إلى ألف أو أقل.

أية أرضية رخوة، تسيخ فيها أقدام الناشرين؟!

وأي نوع من الجراثيم، ذاك الذي تسلط على هذا العدد الضخم من (القراء المفترضين)، فحجب أبصارهم عن القراءة، وقلص عددهم من مئات الملايين، إلى بضعة الآلاف؟!

وأية حواجز شاهقة، قلصت من الرقعة الجغرافية الواسعة التي كان ينبغي أن يتحرك خلالها الكتاب؟ بل أية غرابيل، تلك التي سمحت بهروب كل هذه الأعداد الضخمة من القراء، ولم تبق إلا على حفنة يسيرة منهم، امتنعوا عن الانصياع إلى دفق التيار، وتشبثوا بحبال النجاة، ثم اندفعوا - مثل سمك السلمون – إلى الأعالي يغالبون التيار، ليحفظوا للقراء نبض الحياة، غير عابئين بالقاعدين عن واجب القراءة الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف.

الغربال الأول:

ربما كانت (أُمِّية القراءة والكتابة) أولَ هذه الغرابيل، وأوسعَها ثقوباً، يتساقط منه ما يزيد عن ٧٠% من تعداد الناطقين بالعربية، لم تفلح معهم كل جهود محو الأُمية، وقوانين التعليم الإلزامي، بل إننا أصبحنا نلمح في الجيل الجديد فئة تتمرد على سنة التطور، وطموح المجتمع في عصر المعلومات، فتنسحب من أروقة العلم والدراسة إلى مستنقعات ما يسمونه بالحياة العملية، غير مؤهلة بالحد الأدنى من المعرفة.. تفعل هذا بحجة مواجهة الضغط المعيشي الناجم عن التضخم الاقتصادي، الذي اكتسح العالم النامي، فأخل بكل موازينه الاجتماعية، وقيمه الذاتية، ودفعه إلى حمأة الاستهلاك، وألحقه بعالم الكبار، الذين استأثروا بالمعرفة، والمعلومات، واحتكروا وسائل الإنتاج، ونهبوا موادَّه الأولية بأرخص الأسعار، وقدَّموا له موادَّهم المصنعة بأغلى الأسعار، ونصَّبوا له الدولار إلهاً مزيفاً على العرش، وضربوا على آذانه:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

يحصل هذا في الوقت الذي احتفلت فيه اليابان منذ أمد بتحرير آخر أُمِّي عندها من عار أُمية القراءة بالقلم، وتستعد الآن للتحرر من أُمية القراءة بالأزرار على شاشة الكمبيوتر.

الغربال الثاني:

غربال الأُمية اللاحقة؛ المتمثلة في عزوف المثقفين عن القراءة، وهجرِهم الكتاب منذ مغادرتهم مقاعد الدرس وانخراطهم في حياة العمل، يتعللون لذلك بتعلات سطحية واهية: ضيقِ الوقت، ضيقِ ذات اليد، مزاحمة وسائل الإعلام للكتاب، تطورِ المعلوماتية، وطرحِ أقراص الـ (CD ROM) بديلاً عن الورق.

لا أريد الخوض في تفنيد هذه التعلات، فهي عندي مرفوضة جملة وتفصيلاً، وأنا أملك وصفاتٍ جاهزةً لكل هذه الأعْراض، إذا صدقت نية المشتكي، ولكن ما عساي أفعل مع عازفٍ عن القراءة ران الصدأ على ذهنه، حتى أفقده كل رغبة فيها، واستبدت به شؤون الحياة حتى أفقدته كل شعور بالحاجة إليها؟!

إن عرض مشهيات الطعام على إنسان، قد يُحرك شهيته، ويُثير إفرازاته المعوية، ولو كان متخوماً، بينما عرض الكتاب على عازفٍ عن القراءة، لا يحرك فيه غير التَّقزز وعدمِ المبالاة.

من لي بعاشقٍ للقراءة، صادق الرغبة فيها، كي أوفر له الوقت، ولو من ساعة انتظار ممل.

وأوفرَ له المالَ، ولو من اقتصادٍ في كمالياته، أو تخفيف من تدخينه، أو استغناءٍ عن بعض حاجاته؟!

وأقنعه أن وسائل الإعلام – إن أُحسن استخدامها – ستكون صديقاً حميماً للكتاب، لا منافساً له؟! وأن تطور المعلوماتية، قد يبدل طريقة القراءة دون أن يمسَّ جوهرها، وسيَّان لديَّ أقرأ قارئنا صفحة مطبوعة على الورق أم قرأ صفحة مضاءة على الشاشة؟!

ليس لنا أن نستهين بهذا الغربال، فلئن سمح الغربال الأول بتساقط ٧٠% من الناطقين بالعربية من عالم القراءة، فإن هذا الغربال الثاني سيذهب بـ ٩٠% من الباقين، وإلا

فكيف نستطيع أن نفسر طبع الناشر لعدد وسطي من كل عنوان لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسخة، ببذل قصارى جهده ليروجها خلال فترة وسطية لا تقل عن خمس سنوات؟!

وكيف نفسر أن تهبط حصة العالم العربي من الإنتاج العالمي للكتاب إلى ٨ بالألف، وأن يُترجم كتاباً واحداً مقابل كل ألف كتاب يترجمه اليابانيون.

ولمن يتراءى له شيء من المبالغة في تقديري، أن يقوم باستطلاع شخصي لمئة من أصدقائه وأقربائه، وأن يحرص على تنوع مستوياتهم وتوجهاتهم المهنية والفكرية، هل يجد بينهم أكثر من قارئ واحد؟!

الغربال الثالث:

ويمسك به في طول العالم العربي وعرضه رقيب في الداخل، وعتيد على الحدود، كلاهما مشفق على ثقافة البقية الباقية من القراء التي نجت من غربالي الأُمية والأُمية اللاحقة، لا شك أنها النخبة المثقفة الواعية، وعلى المجتمع أن يعنى بها أيما عناية، وأن يحوطها برعايته، وأن يوفر لها الثقافة الملائمة، وأن يحميها من كل أصناف الاختراق الفكري، والتلوث الثقافي، وأن يصون وقتها من الضياع في قراءة منشورات عجفاء مهزولة، وأن يبعد عن بصرها كل ما فات أوانه من الثقافات البالية، والأفكار المهترئة، وكل ما ثبت ضرره على المجتمع والدين والأخلاق.. موكلاً أمر ذلك كله إلى رقيب وعتيد.

ويبدأ رقيب عمله بأن يعزل، بكل رفق وعناية فائقة، هذه الطليعة المثقفة، التي منعتها رغبتها الجامحة في القراءة، من السقوط عبر ثقوب غربالي الأُمية والأُمية اللاحقة، ويضع في غرباله ما يتجمع لديه، أو يقع بصره عليه من كتب في شتى حقول المعرفة: تراثية أو معاصرة، علميةٍ أو أدبية، فكريةٍ أو ترفيهية، مطبوعةٍ أو في طريقها إلى الطبع، ويبدأ بغربلتها ونخلها، ثم لا يفوته أن ينقب في ثنايا كتابٍ لسيبويه، أو شرحٍ لابن عقيل، أو نظرية لأنشتاين، أو فرضية لفيثاغورث، لعله يجد في بعض صفحاتها مسألة فيها نظر.

حتى إذا اطمأن إلى دقة الفحص، وانقضاء الوقت الكافي للتأمل والتنقيب بكل أناة وحذر، أصدر قوائمه البيضاء بما يمكن أن يسمح به للقارئ الجائع المنتظر المتلهف، وهو مطمئن إلى نوع من الثقافة التي دفع بها إليه، مرتاح إلى أنه أشبع نهم قارئه بما رأى أنه

سينفعه، وأبعد عنه كثيراً من الثقافات العفنة التي ستفسد عليه عقله وفكره، لا يبالي طول المدة، وضآلة الحجم، فطول الانتظار يزيد النهم، وقلة الزاد تبعث على الرشاقة، وتمنع الترهل الثقافي.

ثم يصدر قوائمه السوداء بالكتب الممنوعة التي حمى قارئه من الاطلاع عليها، والتأثر بها، ويدفع بها إلى عتيد، يبحث عنها في دكاكين الوراقين، وفي حقائب المسافرين، خشية أن تتسرب في غفلة من حراس الثقافة وأعين الرقباء.

ورقيبٌ غالباً ما يكون على درجة من الثقافة والتأهيل العلمي، بينما عتيدٌ غالباً ما تنقصه المؤهلات العلمية، سوى ما تتطلبه العناية بهذه القوائم السوداء.. ويا لها من ساعة حرجة، تلك التي تقع فيها عينه على كتاب متسللاً في حقيبة مسافر.

والأصل عند عتيد في كل كتاب أنه ممنوع، وفي كل إنسان أنه قاصر، فإذا وقعت عينه في حقيبتك، وبين حوائجك على كتاب، طالبك رأساً بموافقة رقيبٍ الموكل بالوصاية عليك، وعلى ثقافتك أن تزيغ وتنحرف.

كتب أحدهم ذات مرة يقول: يحتاج المرء كي ينتقل من بلد إلى آخر أن يراجع دائرة الهجرة والجوازات، وسفارة بلد المقصد في بلده، بينما يحتاج الكتاب، كي ينتقل من بلد لآخر، إلى مراجعة أحد عشر مركزاً في البلدين.. قد يكون في هذا الكلام بعض المبالغة ولكن..

مهلاً أخي رقيب! إنني مع كل تقديري لدوافعك النبيلة من أجل صيانة ثقافة الأمة من العبث والضياع والانحراف.. أريد أن أهمس في أذنك همساتٍ ربما يصلح بعضها أن يكون جسراً نتواصل عبره، ونقطة تفاهم ننطلق منها إلى تحقيق غاياتك الشريفة دون إضرار بمستقبل الثقافة والإبداع:

١- ليس القارئ قاصراً يتوجب الحجر عليه، بل هو راشد وهبه الله عقلاً سوف يسأله عن استخدامه أو تعطيله.

٢- إن الاطلاع على ثمرات الأفكار المحلية والعالمية حق من حقوق القارئ، لا يجوز حرمانه منه، بحجة الوصاية عليه.

٣- وقرارات المنع، أصبحت وسيلة من وسائل ترويج الكتاب، استخدمها بعض المؤلفين والناشرين الأذكياء، انطلاقاً مما استقر في فطرة الإنسان من حب الاطلاع على كل ممنوع، والرغبة في الكشف عن كل محجوب.

٤- ثم إن قرارات المنع، قد أصبحت عديمة الجدوى، أمام التطور المذهل لتقنيات الاتصال، ووسائل النسخ المباشر أو المهتوف، والبث الفضائي الذي اخترق كل الحدود، وتجاوز كل أنظمة الحجر والوصاية، ودخل إلى كل بيت، وربما سيدخل إلى كل جيب، من يدري؟!

٥- وما تراه أنت سيئة في كتاب توجب منعه، قد يراه غيرُك حسنة فيه توجب قراءته، فلك رأي وللآخر رأي لا يجوز لك أن تلغيه.

٦- الكتاب يرد عليه بكتاب، والفكرة تصححها الفكرة: لندع الأفكار تتصارع، فإن الحقيقة لا تنقدح إلا بتصادم الأفكار.

٧- إن ثقافة الاتجاه الواحد، غير قابلة للنماء، بل إن مآلها العقم والفناء، فصيرورة الإنسان إلى جنة الفكرة الواحدة، لا تعني غير دمار الكون، وقيام الساعة، ونهاية التاريخ ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢/٢٥١].

٨- وهفوة في كتاب لا تمحو كل حسناته، وزلةٌ من مؤلف لا تهوي به إلى قعر جهنم، فلقد علمنا الله تعالى كيف نتقبل من الناس ﴿أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٤٦/١٦]، ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ [هود: ١١/١١٤].

٩- وتراثنا زاخر بالمناظرات، والمناقشات، بين أهل المذاهب والآراء المتباينة، اتسع لها صدرهم، وشُحذت لها هممهم، فكان هذا العطاء الواسع الكبير.

١٠- والحوار القرآني لم يضق ذرعاً بأعتى المخالفين، كي يعلِّمَنا كيف نستفيد من الاختلاف وتعدد الآراء، وكيف ندخل الحوار دون مسلمات مسبقة:

﴿وَإِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلَى هُدَىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/٢٤].

﴿قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٨١].

١١- أليس ذلك كله بكافٍ أخي الرقيب، أن نقلص رقابتنا إلى أدنى حدّ، ونحصرها في أضيق نطاق، يحفظ للمجتمع نظامه ووحدته وقيمه الدينية والأخلاقية، وفق معايير واضحة، لا تدع مجالاً للاجتهادات العشوائية، والقرارات المزاجية؟!

١٢- إنَّ رقابة تحافظ على الهدوء والنَّوْم، وتحدد المسار، وتلغي التعدد، وتضيِّق القوالب، وتمنع انطلاق الأفكار، سوف تؤدي بالثقافة إلى العقم والشيخوخة والفناء.

وحريةً تتطاول على القيم والمقدسات، وتستخدم التشهير والابتزاز والتسلط والإرهاب الفكري، سوف تئدان الإبداع، وتعيقان حركة الثقافة.

والرقابة، إلى أن يتشكل وعي القارئ، وينمو حسه النقدي، يمكن أن تكون رقابة بين بين، توازن بين عوامل الهدم والبناء، وتحترم التعدد والرأي الآخر، وفق معايير واضحة، ومن لي بمثل هذه الرقابة؟!

لقد ذهب غربال الرقابات المتشددة، بأكثر من ربع العناوين المنشورة في العالم العربي على ضآلتها، فما يسمح به هنا يمنع هناك، وما يقرؤه الإنسان العربي في بلد يحرم من قراءته في بلد آخر، فماذا بعد؟

الغربال الرابع:

يقوم على تخوم الاتجاهات الفكرية، والمذاهب الاجتماعية، والجماعات الدينية، والأحزاب السياسية؛ يرتكز على إعجاب كل ذي رأي برأيه، واستئثاره بالحقيقة، ورفضه الآخر، والجزم بخطئه، والعمل على إلغائه، فلا يقرأ إسلامي لعلماني، ولا علماني لإسلامي، بل لا يقرأ إسلامي لإسلامي آخر، ولا علماني لعلماني آخر، وترتفع الحواجز، ويسقط نصف ما نجا من غربال الرقابة في غربال التعصب للرأي.. وتستحكم أزمة الكتاب، وتستمر ساحة انتشاره في التضيق.

الغربال الخامس:

وثمة غربال، لا يلقي أحد له بالاً، أو يعيره اهتماماً، يهدد مستقبل الثقافة والإبداع، ويثبط حركة التأليف والنشر؛ يمارس نشاطه ضمن ثقافة اجتماعية تنطلق من القاعدة إلى الأجهزة الإدارية والقضائية، عبر سلسلة من الوسطاء، ألا وهو غربال استباحة حقوق

الملكية الفكرية للمؤلفين والناشرين، الذي – إن ترك حبله على غاربه – فإنه خليق أن يقضي على ما تبقى من مقومات الثقافة، وصناعة الكتاب.

وهذا الغربال يمسك به مزورون محترفون، يتصيدون من كل ناشر عنوانه الواحد الذي صادف رواجاً من بين مئة عنوان راكد، فيصورونه ويطبعونه، متحللين من كل حق لمؤلف، أو حرمة لناشر، أو التزام بمستوى، أو نفقة لتحسين وتطوير، ويعرضونه في الأسواق، وهم الأقدار على المنافسة بالسعر الأرخص، نظراً لتحررهم من الأعباء التي يتحملها الناشر تجاه المؤلف، والنفقات التي ينفقها على تحضير الكتاب وإعداده، فيتلقف الكتاب كل من القارئ، وصاحب المكتبة، والمؤسسة التعليمية، والمراكز الثقافية، سعداء بفارق السعر، غير مبالين بمصدره، الذي هو سرقة مكشوفة لحقوق هي أجدر بالاحترام من ملكية السلع المادية والمجوهرات، متذرعين لذلك بذريعة الحاجة إلى تحصيل العلم، فيقتلون العلم حباً بالعلم، في وضح النهار، دون خشية من قانون، أو ردعٍ من قضاء، أو ملاحقةٍ من أمن، أو وازع من ضمير، أو تأنيب من مجتمع.

والآن إلى الغربال المفقود:

إنه وعي القارئ، وحده القادر على توجيه حركة الثقافة؛ حفاوته بموضوع، وإقباله على ما يكتب عنه، يرفع من شأنه، ويلفت الأنظار إليه، ويثير المناقشات حوله وينميه. وإعراضه عن موضوع، يحط من شأنه، ويصرف الأنظار عنه، ويتركه حتى يموت من تلقاء نفسه، فيسارع إلى دفنه حتى لا يؤذي أحداً بنتنه.

وعي القارئ: وحده القادر على غربلة الأفكار، وتقويمها، والاحتفاظ بالنافع النابض بالحياة والإبداع منها، والتخلص من الغثاء التافه، والفكر الميت، والثقافة المتعفنة: إنه القانون الإلهي: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٣/١٧].

يقول لي الصديق العزيز رقيب: من لي بقارئ واعٍ؟ أتريدني أن أترك قارئي يغوص في وحل الثقافة المهترئة، ويتيه في مستنقع السحر والشعوذة والغرائب وقراءة الكف، وغيبوبة الأحلام، وضلال الأوهام، ولما يشتد ساعده، ويبلغْ رشده، ويستحوذ على وعيه بعد؟!

وأقول لصديقي العزيز الرقيب: لن يتكوَّن وعي القارئ، ولن يشتد ساعده، وتقوى مناعته، وتنمو قدرته على تمييز الخبيث من الطيب، ورفض الغثاثة، والتشبث بالأفكار العالية، إلا من خلال قراءته الحرة، إن القراءة الحرة قادرة على أن تصحح أخطاءها وتنفي خبثها.

لا تتعامل مع القارئ كقاصر يحتاج إلى وصاية، أو طفل مدلَّل يحتاج إلى رعاية. دعه يقرأ، وراقبه من بعيد، لتستمتع بالنظر إليه، وهو يعالج كل الزهرات المتفتحة أمامه، لينحي منها زهر الشوكران، الذي يموِّه بجمال منظره ونضارة مظهره ما يُخفيه في داخله من سم زعاف، ويحتفظ لنفسه بكل ذي عطر شذي وطعم شهي، يحتذي بعطره ويغتذي بمضامينه.

أخيراً المسألة لا تعدو أن تكون مسألة تحضُّر.

فحين تكون الأمة صاعدة في مدارج الحضارة، فلسوف تستطيع أن تعالج مشاكل أميتها، وتخطط للخلاص من عارها.

ولسوف ترصد حركة القراءة، وتقلق لأي ظاهرة ضمور فيها، وتهب لتقويمها، وردها إلى نصابها، بوصفها مفتاح المعرفة، التي يختزنها الكتاب.

ولسوف تهيئ للناس المناخ الثقافي الملائم للحوار بين الأفكار، وتزيل الحواجز بين الاتجاهات والجماعات، وتشيع الاحترام للرأي والرأي الآخر، وتجني ثمرات التلاقح بين الأفكار المتباينة.

ولسوف تحمي حقوق التأليف، وتُشجع الإبداع، ويصبح احترام هذه الحقوق، عرفاً اجتماعياً، وسلوكاً فردياً، لا يحيد عنه فرد ولا جماعة.

وفي مجتمع متحضر: لو أن بائعاً قدم لمشترٍ كتاباً مزيفاً مغرياً إياه بسعر أرخص، لما اكتفى بأن يرميه في وجهه، بل إنه يستدعي الشرطة لتقبض عليه بوصفه لصاً ضالعاً في جريمة سرقة.

لست أتحدث عن مجتمع غربي يقطف الآن ثمرة حضارته، فحسب!

بل إن ما يملأ عليَّ نفسي ويستحوذُ على فكري، ذلك المشهد المثير الـــذي وقعــت أحداثه في غار حراء عندما دخل جبريل على محمد يهزه بعنف ليبلغه السطر الأول مــن رسالة السماء الخاتمة ﴿اقْرَأْ﴾، فيرتعد محمد للمفاجأة ويتلعثم قائلاً: ((ما أنـــا بقـــارئ))، وتتكرر الهزة العنيفة ثلاثاً، ويتكرر معها الجواب، فيأتي الوحي الإلهي بالسطر كـــاملاً، في حنوٍّ وإصرار: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (*) خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (*) اقْرَأْ وَرَبُّــكَ الأَكْرَمُ (*) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (*) عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلـــق: ٩٦/١-٥]، لـــن تستطيع إيقاظ أمة وإعدادها لبناء حضارة ما لم تتحرر من أُميتها وتقرأ.

ولقد قرأ محمد (ص)، بأعين أمته التي ارتقت معارج الحضارة، في سنوات معدودات، ثم كبت حين قَصُر باعها في (القراءة).

فهل ستعود أمة (اقرأ)، لتواكب ركب الحضارة من جديد؟!

كلي أمل أنها ستعود.

٢- مستقبل صناعة النشر[1]

في أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٨٨، على هامش المعرض التاسع للكتاب الذي أقيم في رحاب جامعة صنعاء، انعقدت ندوة تحت عنوان (آفـــاق الكتـــاب العـــربي في التسعينيات) قدمت فيها بحثاً بعنوان (صناعة الكتاب العربي: واقعها وآفاقها).

وها أنا ذا اليوم في منتصف التسعينيات، وفي المناسبة ذاتها (معرض صنعاء الثاني عشر للكتاب) في سبتمبر (أيلول ١٩٩٥)، أجدني مدعواً للحديث عن هموم النشر والناشرين.

وأتساءل: هل الناشر يعاني حقاً من الهموم؟

كثيرون من حولي يجيبون بالنفي، ويرون أن الناشر ينعم في بحبوحة من العيش، وينام هادئ البال، لا تبدو عليه مظاهر القلق، ولا آثار الهموم.

---

[1] في ندوة معرض صنعاء الثاني عشر للكتاب المنعقدة بتاريخ ١٩٩٥/٩/٣٠، أعيدت محاضـــرة غرابيل الكتاب، وهذه هي الإضافات التي ضمت إليها، كمقدمة، وكاستطراد على غربال (التزويـــر) الواسع الثقوب.

فهذا الدكتور شاكر مصطفى في مجلة (العربي)، عدد حزيران/ يونيو ١٩٥٥، ينعي الكتاب ويفرح برحيله ليخلصه من علق الناشرين. وهو بذلك يعكس رأي المؤلفين، الذي يعبر عنه يوسف قعيد في مجلة (المجلة)، بعبارة غاية في الإقذاع فيقول: ((الناشر يسرق المؤلف كل يوم، ويدعي الخسارة)).

والقارئ بدوره يشكو جشع الناشر، ومُغالاته في تسعير الكتب، مما يحرم ذوي الدخل المحدود من فرصة اقتنائها.

وناشرو القطاع العام يرون في ناشري القطاع الخاص تجاراً، همُّهم الأول الربح المادي، وليس نوعَ الثقافة التي ينشرونها بين الناس.

فأين هموم النشر إذن؟ وهل للنشر هموم منفصلة عن هموم الناشر؟ وإذا كان الناشر ينعم بكل هذا الرخاء والازدهار، فهل الثقافة والإبداع يشاطرانه رخاءه وازدهاره؟ أم أنه لا يوجد ترابط بين صناعة النشر وبين الإبداع والثقافة، بحيث يمكن أن تضمرَ الثقافة، وينعدمَ الإبداع، ويعلوَ شأن الناشر على أشلائهما؟

لا أريد في هذا المدخل أن أدافع عن الناشر، أو أدرأ عنه سهام النقد، لكنني أود أن أؤكد:

أن وضعنا الثقافي لا يتناسب مع طموحاتنا في التقدم، ولا يشكل لدينا حصناً منيعاً في مواجهة الغزو الفكري الذي يتأهب لاختراقنا، ولا يؤهلنا لمواكبة التطور البشري في عصر تفجر المعلومات.

وأنَّ الهمَّ الثقافيَّ همٌّ مشترَك يقف الجميع فيه صفاً واحداً في مواجهة التخلف؛ مؤلفين وناشرين وقراءً وموزعين، لكلٍّ منهم دوره البناء والفاعل.

وإذا كان لي من عتب على الناقدين، فهو:

التعميم؛ فما كل ناشر علق، ولا كل مؤلف ملاك، ولا صناعة النشر والاشتغال بالثقافة عيب.

وهو السطحية في تصوير المشكلة الثقافية؛ صراعاً بين مؤلف وناشر، أو استغلالاً من ناشر لقارئ، أو تنافساً بين قطاع عام وخاص.

وبعد فما أظنني بحاجة إلى التدليل على تراجعنا الثقافي، يكفي أن ننصت إلى نجوى أترابٍ من جيلي الذي أفاق على نهضة الأربعينيات والخمسينيات، ونستمع إليهم، وهم يذكرون أيامهم الخوالي التي كانت تزخر بالحركة والإبداع، وتمور بالنقد والحوار، في ظل تعدد الآراء، وتصارع الأفكار.

كما لا أظنني بحاجة إلى التأكيد على أن المعرفة أصبحت تمثل القوة العظمى في حياة الأمم، وأن رقي الأمم أصبح يقاس بمقدار ما تملكه من ثروة المعلومات، لا بمقدار ما تملكه من ثروة المال، وترسانة السلاح.

فلنبحث عن العوامل التي جعلت أمسنا الثقافي أفضل من حاضرنا وعن العوائق التي وقفت عثرة في طريق مسيرتنا نحو الإبداع:

ما زلت على يقين من أن استباحة حقوق الملكية الفكرية، تقف على رأس هذه العوامل، لأنها تعكس ازدراء المجتمع الذي يمارسها للثقافة، واحتقاره لجهود العاملين فيها، كما تشكل أول عائق في طريق الإبداع، لأنها تقتل روحه وحوافزه.

ولقد أصبح للتزوير مراكز قوية ومتشعبة في طول العالم العربي وعرضه؛ بعضها للإنتاج، وبعضها للتجميع، وبعضها للترويج والتسويق، كما أصبحت لها أساليب متعددة للتحايل على القانون، ولبست جبة الواعظ لتضفي نوعاً من الشرعية على جريمتها النكراء، ولتقنع القارئ بأنها إنما تعمل لمصلحته، لوجه الله تعالى، وخدمة العلم الشريف.

واستطاعت بذلك أن توصد الأبواب أمام الناشر الجاد؛ المبدع والملتزم، فكتابه الناجح من بين مئة عنوان كاسد قد صادرته مافيا التزوير؛ وأقامت له أسواقاً كبيرة في عدد من البلدن العربية، أغرقتها بالكتاب المزوَّر، وأغلقتها لصالحها، حتى بات صاحب حق النشر من ناشر أو مؤلف محروماً من دخولها، يُستقبل – إن استُقبل – كضيف سمج ثقيل الظل، لا يؤبه به، ولا يكترث لرحيله.

وحين تحركت اتحادات الناشرين لضبط حركة النشر في مراكز الإنتاج، في لبنان ومصر والأردن وسورية، انتقل المزورون بإنتاجهم المزيف إلى سنغافورة وهونغ كونغ وتايوان.

وحين بدأت أصوات المشفقين على الثقافة تعلو للحد من ظاهرة الاعتداء على حقوق الإبداع في مراكز الترويج، بدأ المزورون يفكرون في إقامة اتحادات مهنية تحت شعارات زائفة لحماية مصالحهم، والدفاع عن وجودهم.

فعلى الرغم من الجهود المخلصة، التي يبذلها المسؤولون عن الثقافة في الوطن العربي، لحماية حقوق المبدعين، فإن زخم موجة التزوير ما زال عاتياً، وشيوعَه واستعلاءَه ما زال يشكل تحدياً خطيراً للحق والقانون والقيم، ولمستقبل الثقافة والإبداع. واسمحوا لي أن أعرض عليكم بعض الصور، لتقدروا في ضوئها حجم المشكلة:

- في صورة أولى يقف صاحب المكتبة مُسْقَطاً في يده لا يملك سوى أحد خيارين:

إما أن يتعامل بالمزوَّر ويستمر، وإما أن يتعامل بالشرعي وينسحب، وذلك حين يمتلئ السوق بالكتاب المزوَّر المعروض بسعر أرخص، ويكسد عنده الكتاب الشرعي ذو السعر الأعلى الذي روعيت فيه حقوق المؤلف والناشر، وغالباً ما يختار مسايرة السوق، أخذاً بقول الشاعر:

وما أنا إلا من غُزَيَّةَ إن غوت	غويتُ وإن ترشد غزية أرشد

- وفي صورة أخرى يقف القانون عاجزاً عن الأخذ على يد موزِّع مخادع، استورد كتاباً مقرراً بكمية محدودة من ناشرِه الأصلي، وعرضه في مكتبته، واشترى من مزوِّر الكتاب نفسه بكمية كبيرة، جعلها في مستودعٍ خاصٍّ، وملأ بها الأسواق، ومكتبات البيع.. ويكتشف الناشر والمؤلف الأمر لأن الفارق بين النسختين واضح، ويرفعان الأمر للقضاء، لكنهما يعجزان عن الإثبات، فمكتبات البيع تقول: إن المزوِّد لها بالنسخ المزوَّرة هو الموزِّع، والموزِّع يقول: إنه لم يزودهم إلا بنسخ شرعية، ولا يعرف من أين جاؤوا بالمزوَّر، وتحفظ القضية لتحكي عجز القضاء أمام حيل محترفي التزوير.

- وفي صورة ثالثة: يكتشف اتحاد الناشرين العرب شحنة بحرية بموجب فاتورة صادرة عن مكتبة في عمان لمصلحة مكتبة في صنعاء، تضم عناوين شتى لناشرين لبنانيين ومصريين وأردنيين، ويعمم الاتحاد الموضوع على ذوي العلاقة ويتدخل وزراء الثقافة، في سبيل إيقاف هذا الاعتداء ورد الحقوق لأصحابها، وتُرفض الكتب ويُطلب إعادتها إلى المصدر،

ثم يتبين أن الكتب أخذت طريقها، على حين غفلة من الرقباء، إلى موزع آخر، ليغرق بها الأسواق.

وعشرات الصور تتكرر على مسرح حركة الكتاب وصناعة النشر، تؤكد الاستمرار في التحدي، والإصرار على وأد الإبداع.. ولئن قُدِّر لهذا التحدي أن يستمر، فلن يستمر مؤلف جاد في التعب والسهر لتزويد قرائه بمستجدات العلوم والأفكار، ولن يجرؤ ناشر على المغامرة في التخطيط والإنفاق لإصدار السلاسل والموسوعات والأعمال الثقافية الكبرى.

إن للباطل جولةً وتزول، ولن يُعجز المخلصين والغيورين على مستقبل الثقافة والإبداع أن يكثفوا جهودهم ويوحدوا صفوفهم لمواجهة هذا التحدي، وعسى أن يكون تصديهم الطوعي أكرم لهم من إرغامهم على ذلك بمقتضى اتفاقية (الجات) الذين هم بصدد التوقيع عليها.

الفصل الثاني

نحو تنفيذ فاعل

لخطة عربية طموحة

تكثر الدراسات، وتتعدد الأطاريح، وتزداد الندوات، ومع ذلك لا تجد لها صـــدى في الواقع.. ولعل هذا الأمر أضحى طبيعياً في كل المجالات! ولكن في واقع علاقة الفرد مـــع الثقافة، والكتاب خاصة كأهم وسيلة ثقافية، يكمن البعد المأساوي الذي نحياه بين التنظير والفاعلية. فالندوات المشبعة بالأماني والاقتراحات والتوصيات لن تلقى امتداداً ما لم ترتبط بخطة تلزم العاملين في المجال بالسير في الطريق الصحيح والسليم. فكل ما نختبئ خلفه مـــن شعارات رنانة لن يخفي غثاثة هذا الواقع، وكل النوايا الطيبة والتشخيصات الدقيقة المنبهة إلى مواقع الوهن لن يكون لها رصيد خارج لحظة إطلاقها ما لم تـــرتبط بعمـــل دؤوب، فالأمر لا يتعلق ببيان نصدره حول خطة عربية طموحة لحل إشكالات علاقة الفرد مـــع الثقافة – والكتاب تحديداً – بقدر ما يتعلق بالتنفيذ الفعال لهذه الخطة.

لا أريد، بل لا أستطيع أن أؤدي أمامكم دور المطرب، يشدو بألحانه، ليثير في نفوس السامعين نشوة تحلق بهم فوق ما يعانونه من هموم، ثم ما تلبث أن تتبـــدد تحـــت وطـــأة الواقع.. فالهمُّ الثقافي الذي نعيشه أشدُّ وطأة وأكثرُ إلحاحاً مـــن أن نســـتطيع تجاهُلَـــه، والهروبَ منه، ولو إلى حين.

كما إننا نربأ بتصوراتنا ومقترحاتنا أن تتبدد في شكل توصيات وبيانات تعودنـــا أن نختم بها ندواتنا، لتأخذ مكانها: خُطباً تذهب أدراج الرياح، أو حبراً على ورق يستقر على رفوف المحفوظات.

لقد شدني المحور الثالث من بين محاور هذا اللقاء: (نحو تنفيذ فاعل لخطة عربية للنشر والتوزيع)، ليس لأنه أكثر أهمية من المحاور الأخرى، بل لما يشي به من وعي لحالة الكلالة والعجز وانعدام الفعالية، التي تتسم بها لقاءاتنا، ومن تحذير واضح من الوقـــوع في فـــخ التوصيات، ومن رغبة ملحة في تقديم تصورات تضعنا على طريق الفعالية، وتقود خطانا، مهما كانت بطيئة متثاقلة، إلى ميادين العمل.. وإلا فما معنى أن تتلاحق هذه الكلمـــات:

تنفيذ، فاعل، خطة، عربية؟ لقد كان لها في نفسي وقع ضربات المسحر على طبله، كـــي يوقظ النائمين.

وبدوري لا أجد ما أقدمه على هذا المحور، أبلغ مـــن هـــذه الكلمـــات، أرددهـــا وألـــحُّ عليها: فكم نحن بحاجة إلى أن نتحرك بفعالية لتنفيـــذ خطـــةٍ عربيـــة، لترقيـــة النشر والتوزيع.

ليس المطلوب منا إذن – على هذا المحور – أن نضـــع خطـــة، بـــل المطلـــوب أن نتحرك بفعالية.. ذلك أن جعبتنا ملأى تفيض بالعديـــد مـــن التصـــورات لمشـــكلات النشر، ومن المقترحات لمواجهتها وحلـــها.. تكدســـت خـــلال عشـــرات النـــدوات، نسخاً متكررة، لم تجد واحدةٌ منها طريقها إلى التنفيذ. ولكي يكـــون تحركنـــا فـــاعلاً يجب:

١- أن نصنف هذه التصورات والمقترحـــات في محـــاور متجانســـة، وأن نرتبـــها ضمن كل محور بحسب الأولويات.

٢- أن نرص صفوفنا للقيام بعمل جماعي مشـــترك، يســـتفيد منـــه الجميـــع، دون أن يخسر أحد شيئاً.. أعني أن نكون واقعيين، نتـــرك لكـــل منـــا مصـــالحه الخاصـــة، ونبحث عن المصالح المشتركة بيننا، ونتعلم كيف نتوحد عبر التعـــدد، ونتعـــاون عـــبر التنافس، ونتكامل عبر التناقض.

٣- وفي سعينا الجماعي، علينا أن نميز بين ما هو محلـــي، ومـــا هـــو قـــومي، وأن ننسق بينهما حتى نخرج بصيغ عربية مشتركة قد تبـــدو عســـيرة في الوضـــع الـــراهن، بسبب تناقض الأنظمة السياسية والاقتصادية والفكرية على الســـاحة العربيـــة، لكنـــها ستكون سهلة إذا أخضعنا أنفسنا بالحكمة الذهبية التي تقـــول: ((نتفـــق فيمـــا اتفقنـــا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه))، ولسوف نجد أن ما لـــدينا مـــن عوامـــل التوحد والائتلاف، أكثر بكثير مما يغري بيننا من عوامل الشقاق والاختلاف.

فإذا اختلفت آراؤنا، وتعددت مذاهبنا، فلنبحث عن نقطة وفـــاق ننطلـــق منـــها، بدلاً من التدابر.

وإذا تعارضت مصالحنا، فلنبحث عن مصلحة مشتركة نسعى لتحقيقها، بدلاً من التقاطع والتناحر.

وبشيء من الأناة والصبر والممارسة والإصرار، سوف نتعلم كيف نتعدد لنتوحد، وكيف نجتمع لنتفرد؟

سوف نتعلم كيف نعمل مثنى وفرادى؛ مجتمعين على قواعد مشتركة، ومنفردين بخصوصياتنا المميزة لكل منا.

إن عمل الجماعة لا ينبغي له أن يلغي شخصية الفرد، وطابعه المتميز.

حين نبحث في جعبتنا عن المشكلات التي مللنا من تكرار طرحها، سوف نجد:

١- قرصنة النشر، والاعتداء على حق التأليف والإبداع.

٢- عشوائية الرقابة دون ضوابط لدى أنظمة الحجر الفكري.

٣- تفاقم الرسوم المالية والجمركية المفروضة على الكتب.

٤- غلاءَ أجور البريد والنقل.

٥- تحولَ معارض الكتاب إلى أسواق تخرج بها عن أهدافها.

٦- عزوفاً متصاعداً عن القراءة.

٧- فقدانَ المناخ الثقافي الملائم لتنمية الإبداع والنقد والوعي.

٨- تقصير وسائل الإعلام في التعريف بالكتاب والترويج له.

٩- غيابَ مؤسسات التوزيع التي تعمل بجدارة على إيصال الكتاب.

١٠- ضعفَ المنظمات المهنية، وعجزها عن إرساء تقاليد وبلورة أهدافٍ واضحة.

إن تفاقم هذه المشكلات المتزايدَ يوماً بعد يوم، إنما يعكس حالة الانفصام التي نعانيها بين الفكر والتطبيق، وحالة انعدام الفعالية.. اعذروني إن تركت المشكلات التي تمسك بتلابيب المهنة التي أعتز بالانتماء إليها، وتشبثت بقضية الفعالية التي استوحيتها من عنوان هذا المحور (نحو تنفيذ فاعل)..

إنها أم المشكلات، ومعيار للتحضر والتقدم.. فعندما تنعقد ندوة في مجتمع متحضر، فإن النديَّ، ما إن تختتمَ الندوة وتصدر التوصيات، حتى يتملكه الشعور بالمسؤولية عن التنفيذ، وبأن ساعة الكلام قد انقضت، لتبدأ ساعة العمل، وأن اختتام الندوة يمثل البداية لا النهاية.

أما عندنا، فإن انتهاء الندوة يعني انتهاء العمل، لقد أدى الجميع واجبهم، وتعب المنظمون في التحضير، وتعب المتحدثون في التنظير، ونجحت الندوة.. فإلى ندوة قادمة.

من لي بنديٍّ شجيٍّ، تتملكه حرقة الهم الثقافي، تأخذ عليه كل مأخذ، وتدفعه إلى الحركة والمتابعة الدائبة، لا يهدأ له بال، حتى يرى أمانيَّه وأحلامه تتحقق؟!

لمثل هذا النديِّ دعانا منظمو هذه الطاولة، ولمثل هذا الندي، أدعو كل الأطراف المعنية بصناعة الكتاب والكلمة؛ مؤلفين وناشرين وموزعين وإعلاميين.. أدعو تجمعاتهم ومنظماتهم، أن يُودعوا عهود الاسترخاء تحت أضواء المؤتمرات والحفلات، ليضعوا أقدامهم على طريق الفعالية والتنفيذ.

لقد دقت ساعة العمل.. لم يعد في الوقت متسع.. الغزو الثقافي يتهددنا بالاختراق، وتزييف الهوية، وإنكار الذات، وصوت النذير الإلهي يصيح بنا:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (*) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٦١/٢-٣].

إن الهدف النهائي لهذا التحرك الفعال، هو القارئ، لتوفير أفضل الفرص له كي يقبل على القراءة دون عوائق، فالقراءة أولاً، والقراءة مفتاح كل حضارة، وسمة من سماتها.. فإذا أنت وجدت مجتمعاً قارئاً، يتحين كل فرصة متاحة للقراءة، ويتحكم في أوقاته لا يسلمها إلى خليٍّ ثرثار، ولا إلى جهازٍ تغرق في بحره المترامي دون شاطئ أمان ولا طوق نجاة.. وإن أنت وجدت مجتمعاً يرصد حركة القراءة بين أفراده، يسعده أن يرى مؤشرها آخذاً بالارتفاع، ويقلقه حتى الجنون أن يرى مؤشرها قد انخفض – ولو بضع درجات – ويتحرك ملهوفاً لترميم الفجوة، فإنك تحس حتماً أنك أمام شعب متحضر.

فلنبذل كل جهودنا من أجل تكوين هذا المجتمع القارئ، ومن أجل تنمية وعيه القرائي، وحسه النقدي، ولنرفع عنه كل أنواع الوصاية والحجر الفكري، سواءً أكانت هذه الوصاية آبائية سياسية أم دينية، ولنستمتع بالنظر إليه، وهو يعالج أغصان المعرفة، تدمى يداه بأشواكها حتى يستخلص وردها وأزهارها، ثم يتمرمر وهو ينحي أزهارها الضارة، التي يغريه مظهرها، ولا يجد في باطنها غير سمٍّ زعاف.

تقول لي: لماذا لا نوفر على أبنائنا عناء البحث، ونقدم لهم كؤوس الثقافة صافية، لا تشوبها شائبة؟

وأقول لك: إن ثقافة الاتجاه الواحد مآلها إلى الفناء، ولا تنقدح الحقيقة إلا باحتكاك الأفكار، ولا ينمو الإبداع إلا بتعدد الآراء، ولا تتكون المناعة ولا تُحصَّنُ ثقافة الأجيال إلا بالاطلاع على الرأي الآخر، وما تراه أنت من الشوائب قد يراه غيرُك كبد الحقيقة، ولا يصحح أخطاء القراءة إلا مزيد من القراءة.

أعطوني مجتمعاً قارئاً، أضمن لكم الحل لكل المعضلات.

إنني أشكر لمنظمي معرض الشارقة أمرين:

أولهما: تركيزهم على (خلق مجتمع قارئ) كهدف أساسي ووحيد لمعرض الكتاب.

وثانيهما: تنظيم هذه الطاولةِ المستديرة، من أجل تنفيذٍ فاعلٍ لخطة نشر عربية.

إنني أرى في ذلك وعياً عميقاً لطبيعة مشكلتنا الثقافية، التي تفتقر إلى (المجتمع القارئ)، وإلى (التنفيذ الفاعل).

الفصل الثالث

عوز القراءة المكتسب

كيف تخلد الأمم العريقة إلى الجمود والخور؟ وهل ترتجى النهضة في أمة عازفة عن القراءة معرضة عن قراءة واقعها وماضيها وتلمس مستقبلها؟ وكيف تدَّعي أمة صلتها الوثيقة بدينها وهي تتنكر لأول أمر فيه؟..

أسئلة وغيرها كثير، تبعث على الحيرة والأسف مما نحن فيه، ولئن كانت هذه الأمة قد أمَّنت حماية واسعة من خلال دينها من آفات العصر كمرض عوز المناعة المكتسب (الإيدز)، فإن هناك داءً أكثر استشراءً أصبح أو يكاد يصبح مرضاً عضالاً، يودي بالعقول وينشر الخمول ويضعنا في أسفل قائمة الحضارة، ألا وهو (مرض عوز القراءة المكتسب)[1]!

لقد بنينا حضارة تفخر بها الإنسانية جمعاء يوم استجبنا للأمر الإلهي الذي بدأ بكلمة ﴿اقْرَأْ﴾، وكلما أراد الله تعالى لأمة أن تنهض من حمأة الجهل والفساد أرسل لها كتاباً يخلّصها من أدرانها وأمراضها، ويرتقي بها في سلم التحضر والعلم.

لا شك أن لهذا المرض أسباباً ونتائج ربما تكون أكثر سوءاً مما هي عليه الآن، كما أنه مثل أي مرض آخر يحتمل العلاج!!

بل إن معالجته ستكون وقاية من أي مرض، ذلك أن تلافي هذا المرض يعني نمو الوعي، ونموُّ الوعي خير حصن للإنسان ليقف بمنأى عن المرض بأشكاله المحسوسة والمعنوية، سواء أكان ناتجاً عن جراثيم وبكتريات متسلّلة، أم كان ناتجاً عن الخور والعبث، أم كان ناتجاً عن تفسخ القيم والمبادئ وانحرافها.

هذا ما نودُّ توضيحه.. لعل إسهامنا هذا يكون جزءاً من حملة تعيد هذه الأمة إلى سبيل الرشاد وتضعها على الطريق الصحيحة، طريق القراءة.

---

[1] نص محاضرة ألقيت في مدرج كلية الطب البشري بدعوة من اللجنة الثقافية لاتحاد الطلبة بجامعة دمشق بتاريخ ٢٦/٤/١٩٩٥.

فأن تقبل أمة على القـــراءة، وأن تصـــبح القـــراءة حاجـــة عليـــا لأفرادهـــا، وأن تترسخ عادة القراءة عندهم، حتى يكون همهم إليها لتغذيـــة عقـــولهم، مثـــلَ همهـــم إلى الرغيف لتغذية أجسامهم، وأن تغدوَ لأحدهم وجبةٌ يوميـــةٌ مـــن القـــراءة، يلـــوب لتلبيتها، إلى جانب وجبات طارئة يغتنم لها كل فرصةٍ ســـانحةٍ؛ مثـــل وقـــت انتظـــار ميت، وأن ينمو الإحساس لدى أفراد أمة بالوقت، حتى تكون القراءة خـــير مـــا يمـــلأ به، ويستغلُّ فيه، وأن يدخل الكتاب ضمن قائمة الاحتياجـــات اليوميـــة الـــتي يخـــرج بها رب الأسرة من بيته كي يعود بها إلى أسرته.. فـــإن ذلـــك كلـــه يعـــني أن هـــذه الأمة، قد أزمعت أن تفجر طاقاتها الكامنة، من أجل بناء حضارتها.

وسواءً أكانت هذه الأمة بكراً تودّ أن تدخل رحـــاب الحضـــارة مـــن جديـــد، أم كانت ذات حضارة تحرص على صـــونها مـــن أن تعتريهـــا أعـــراض الشـــيخوخة، أم كانت حثالة حضارة فقـــدتها بســـبب طـــول الأمـــد، وتحجـــر الفكـــر، ترنـــو إلى استعادتها، فإن القراءة هي المفتاح الذي تلج به باب الحضـــارة، وهـــي الوقـــود الـــذي يحافظ على تأجج شعلتها وتألقها، وهي المرجل القادر على تبخيرهـــا كـــي تـــتخلص من رواسبها، ثم تقطيرها كي تعود إلى جادة الحضارة من جديد.

وإن شئتم دليلاً على كل ذلك، فاستمعوا إلى أول نداءٍ في آخـــر رســـالة سماويـــة إلى الأرض، دوَّى في غار حراء، وترددت أصداؤه في جنبـــات مكـــة: ﴿اقْـــرَأْ بِاسْـــمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (*) خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَـــقٍ (*) اقْـــرَأْ وَرَبُّـــكَ الأَكْـــرَمُ (*) الَّـــذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (*) عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٩٦/١-٥].

وتأملوا سرعة التغيير الذي أحدثه هذا النداء، في أمـــة كانـــت ضـــائعة في رمـــال الصحراء، لا يؤبه بها، ولا يكترث لها، فـــإذا بهـــا تمتلـــك ناصـــية العلـــم والمعرفـــة، وتستوعب عصارة حضارتين كبيرتين، لتتسلم منهما الراية، وترفعهـــا شـــامخة تضـــيء العالم قروناً، قبل أن تخلد إلى الراحة، وتأخذها سِنة من النوم.

ثم ليتذكر من زار الدول المتقدمة منكم، هل كان يـــرى في وســـائط النقـــل الـــتي تخترق جوف الأرض، أو تجوب آفاق الســـماء، أو تمخـــر عبـــاب البحـــر، أو تعـــبر

الشوارع والبراري.. هل كان يرى أحداً لم يتأبط كتاباً تزود بـه ليكـون رفيقـاً لـه يصحبه في رحلته؟ لا يترك لأي طفيلي ثرثار أن يُعَكِّر عليه صفو خلوته معه؟..

لقد هزت أميركا يوم أن سبقها الروس في إطلاق قمرها الصناعي الأول، وتداعى خبراء التربية فيها للبحث عن أسباب هذا الخلل، فأجمعوا أمرهم على أن الخلل إنما جاء من هبوط في (القراءة) لدى الشعب الأميركي، حشدوا لرفعه كل إمكاناتهم التربوية.

وفي عام ١٩٩٣، لاحظ الفرنسيون خللاً أدى إلى ضمور يسير في نسبة القراءة عند الشعب الفرنسي، فنظموا مهرجاناً أطلقوا عليه اسم مهرجان (جنون المطالعة)، نزل فيه وزير الثقافة، وكبارُ المؤلفين الفرنسيين، وكل المعنيين بشؤون الثقافة، إلى الشوارع والساحات العامة والحدائق، وفتحوا أبواب المكتبات على مصراعيها أمام الجماهير، وأخذوا يقرؤون لها، ويحثونها على القراءة، في محاولة لرأب الصدع وسد الخلل.

هل نحن بحاجة إلى التدليل على أننا نعاني أزمة قراءة في عالمنا العربي؟

لا أريد أن أقدم لكم إحصاءاتٍ عن كميات الورق المستهلك، وعن عدد العناوين، وعدد النسخ التي تنشر سنوياً في العالم العربي، وعن نصيب كل فرد من هذه النسخ، وما يقابلها من أرقام في العالم المتقدم حتى لا أُصدَم وأصدمكم معي بالفارق المذهل.

وبالرغم من أنه، على ضوء هذه الإحصاءات في العالم المتقدم، تتم معايرة المستوى الثقافي للشعوب، وتُرسم السياسات التربوية لها، فإنني لا أرى لهذه الإحصاءات عندنا وزناً يحرك المؤشر الثقافي بعيداً فوق نقطة الصفر. فكل ما حولنا يشير إلى أننا أمة لا تقرأ... أزماتنا المستحكمة.. تفرُّق كلمتنا.. عوزُنا المعرفي.. فقرنا الاقتصادي.. كل ذلك يشير إلى مصدر الخلل عندنا، ألا وهو أزمة القراءة.. فعندي: القراءة أولاً، والقراءة تحتل مرتبة الصدارة في سلم الأولويات، فما لم نقرأ، لن نستطيع أن نعتنقَ عقيدة، ولا نتذوقَ حرية، ولا نمارسَ ديمقراطية، ولا نكوِّن وحدة، ولا نبني اقتصاداً.

إننا نعيش عصر المعلومات، الذي لم تعد الأمم فيه تقاس بمقدار ما تملك من السلاح، ولا ما تملك من الثروات، بل بمقدار ما تملك من المعلومات، فهي تتسابق لتنمية رصيدها منها، وذلك هو طريقها الوحيد للتفوق، فهل ثمة طريق لاكتساب المعلومات غير القراءة؟

لن أتوقف طويلاً عند جمع الأدلة على عزوفنا عن القراءة، وما أظنني بحاجة إلى ذلك لإقناعكم، فالكتاب الذي يتزايد إنتاجه في العالم باطراد، في عدد العناوين الجديدة، وفي عدد النسخ المطبوعة، يتناقص إنتاجه عندنا، رغم الازدياد في عدد السكان، والنقص المفترض في عدد الأُميين، نتيجة تشريعات التعليم الإلزامي.. والكتاب عندنا يعاني أزمة الكساد.. والقراءة؛ جادةً كانت أم ترويحيةً، لم تبلغ عندنا درجة الاعتياد.

إن حالة العزوف عن القراءة في عالمنا العربي تشمل مثقفينا منذ أن يغادروا مقاعد الدراسة، وأولئك الذين توزعتهم سبل العيش قبل أن يكملوا الحد الأدنى من تحصيلهم العلمي، وهي ظاهرة تستحق أن يهتم بمعالجتها كل معني بمستقبل الثقافة.

وإذا سألنا عن السبب !

فالبعض يتعلل بضيق الوقت، وكثرة المشاغل، وتعقد سبل العيش، وثقل أعباء الحياة..

ولو صح منا العزم، وتوافرت لدينا الرغبة، وأحسسنا بالحاجة، لوجدنا الوقت الكافي للقراءة، فكم من الوقت نضيعه فيما هو أدنى منها وأهون؟!

كم من الوقت نقضيه انتظاراً في عيادة طبيب؟ في محطة أو مطار؟ في سيارة أو طيارة أو قطار؟ على باب مدير؟ في ردهة دائرة حكومية؟ أفلا نصطحب كتاباً نتغلب بقراءته على ملل الانتظار؟!

كم من الوقت نقضيه في أسمارنا مع الأصدقاء؟ أفلا تكون لقاءاتنا أكثر جدوى ومتعة؟ لو كان محورَها مناقشة كتاب، وحوار أفكار، بدلاً من الثرثرة الفارغة عن أحوال الطقس، وأنواع الطعام، وآخر النكات الهابطة؟!

كم من الوقت تقضيه السيدة في زيارة الأهل والجيران؟ وفي الصفق في الأسواق لتزجية الوقت؟ وفي المكالمات الهاتفية المطولة؟

أليس مفيداً، وهي التي تضطلع بشرف تربية الجيل الصاعد، أن يكون للكتاب في وقتها النصيب الأوفى، توفره من أوقات الطهو والتسوق، وتوظفه محوراً لأحاديثها في اللقاءات والزيارات؟

يقرأ القارئ العادي ٣٠٠ كلمة في الدقيقة، أي ما يعادل خمس عشرة صفحة في عشر دقائق، فلو عوَّد الواحد منا نفسه أن يقرأ عشر دقائق كل يوم، لأمكن أن يقرأ كتاباً صغيراً كل أسبوع، أو كتاباً كبيراً في كل شهر، أي إنه سيقرأ عشرين كتاباً من أحجام مختلفة كل عام. فهل يتعذر على أحد أن يوفر هذه الدقائق العشر من وقته كل يوم للقراءة؟ ويلزم نفسه ألا ينام مهما تأخر حتى يقرأ؟

لقد وضع الطبيب لنفسه قانوناً صارماً أن يقرأ كل ليلة ربع ساعة، مهما تأخر في عمله، وقبل أن يأوي إلى فراشه، فإذا هو يجد نفسه بين المشتغلين في الأدب، بجانب تخصصه المهني، وإذا به يشعر بسعادة غامرة، ساعدته على التفوق والنجاح في تخصصه نفسه.

تلك كانت تعلة الوقت، أما التعلة الثانية للعازفين عن القراءة فهو تعلة المال.. الكتاب غالٍ، يعجز أصحاب الدخل المحدود عن اقتنائه.

مرةً، خلال معرض للكتاب في أحد البلدان العربية، سألني سائق تكسي مثقف، علمت فيما بعد أنه يحمل إجازة في الأدب العربي، ما سبب الفتور في حركة الزوار للمعرض؟ ورغم عدم قناعتي أجبتهُ اختصاراً وتخلصاً، إنه ضعف القوة الشرائية لدى الناس، فرفض هذه التعلة قائلاً: لو كان المعرض للأزياء، أو الإلكترون والكهرباء، أو الأدوات المنزلية، لتوافرت القوة الشرائية لديهم، ولتزاحموا على المعرض يتلمظون للشراء، ثم ذكر أسباباً للعزوف عن الكتاب، تتصل بضعف الإبداع، وبالحجر على الأفكار، وتقييد حرية القارئ، سأعود إليها في موضع آخر من هذه المحاضرة.

إن الكتاب العربي أرخص كتاب في العالم، ونسبة الارتفاع في سعره أدنى منها في أية سلعة أخرى. وإن شعورنا بغلاء سعر الكتاب، يعكس نظرتنا الدونية له، فعبر هذه النظرة لن نقرأ مهما انخفض سعر الكتاب، ومهما تعاظمت قدرتنا الشرائية.. حتى لو قدم الكتاب إلينا دون مقابل.

أما عندما يرقى الكتاب في نظرنا إلى مستوى الحاجة، فسوف نوفر له المال اللازم، مهما كان دخلنا محدوداً.

إننا ندفع أحياناً في سلع كمالية، وأشياء غير ضرورية، ما يمكننا من شراء عشرات الكتب، وقائمة الكماليات في حياتنا كبيرة، تبدأ بعادة التدخين، والاستجابة لإغراءات السلع الاستهلاكية، والتعجل بشراء الخضر والفواكه قبل مواسمها بدفع أثمان أعلى.. وأطفالنا نقدم لهم يومياً كل أصناف الحلوى والمرطبات والألعاب، بما يزيد عن حاجتهم، ويسبب الإضرار بصحتهم، ولا نفكر في أن نقدم لهم كتاباً أو قصة تناسب أعمارهم.

إن لتوفير المال اللازم لاقتناء الكتب طرقاً كثيرة متى عقدنا العزم على القراءة، وحين يستحكم عجزنا عن شراء الكتاب، فإن فرص المطالعة، لإشباع رغبتنا بالقراءة، متاحة في المكتبات العامة، التي تنتظر الرواد، وتشكو الهجر.

والآن بعيداً عن التعلات السطحية الواهية، كيف يمكن أن ننظر إلى أزمة الكتاب، وأزمة القراءة في عالمنا العربي؟

ربما أستطيع من خلال صورة أقدمها لكم من واقع مهنة النشر، أن أوضح محدودية الرقعة الثقافية التي يتحرك ضمنها الكتاب العربي!

كتب ناشر عربي إلى دار نشر أجنبية، يستأذنها في نشر ترجمة عربية لأحد كتبها، فسألته عن عدد النسخ التي يعتزم طبعها، فأجابهم ١٥٠٠ نسخة، فكان الرد إذناً له بالطبع دون مقابل لحقوق التأليف، مع لفت نظره إلى أن الطبعة الأولى باللغة الأجنبية، كانت مئتي ألف نسخة، نفدت خلال أقل من شهرين.. وكان هذا الرد ينطوي على رثاء لحال الناشر العربي في أمة لا تقرأ.. ولسوف

تتكدس النسخ الضيئلة التي طبعها في مخازنه بضع سنوات قبل أن ينجح في تسويقها في طول العالم العربي وعرضه.

هل ارتفاع نسبة الأمية في العالم العربي هو السبب في أزمة الكتاب؟

ربما كان ذلك سبباً، ننطلق منه إلى أسباب أخرى، تُفاقم من الأزمة، عسى أن يكون الكشف عنها تشخيصاً للداء يعين على وصف الدواء:

١-فإلى جانب الارتفاع في نسبة الأُمية والأُمية اللاحقة في الوطن العربي، تقوم القيود التي تحد من حركة الكتاب، وتضيق من الرقعة الثقافية التي يمكن أن يَطرح عليها المؤلف أفكارهم.. فمن القيود الاستيراد والتصدير التي تتعامل مع الكتاب كما لو كان سلعة تجارية لا تتصل بالثقافة، إلى قيود الرقابة المتضاربة على الساحة العربية والتي تتنوع بشكل مزاجي، لا تحكمه أية ضوابط أو معايير.. حتى غدا الكتاب محاصراً منبوذاً تتناوشه الأنظمة، وترتفع في وجهه الحواجز، فلا يكاد يفتح أمامه باب، حتى توصد في وجهه أبواب، وإذا ضبط متسللاً في حقيبة مسافر، فيا له من موقف تصفر له الوجوه، وتجف له القلوب، ويدعى على حامله بالويل والثبور وعظائم الأمور، ويصادر كما تصادر المخدرات والمهربات.

ولمعرفة مدى خطورة وتأثير هذه القيود، يكفي أن نعلم أن قائمة الممنوعات في بلد عربي واحد تشتمل على خمسة آلاف عنوان، وأن قوائم الممنوعات في بعض البلدان تصدر بأسماء المؤلفين بالجملة، ما ألَّفوه وما سوف يؤلفونه.

هذا هو الغربال الأول، وهو غربال سياسي، يقوم على الحدود الفاصلة بين أقطار الأمة العربية الواحدة، ليشل حركة الكتاب، فلا يسمح بالمرور إلا لكتاب موافق للأهواء، يعزف على أوتار التخلف، ويدغدغ النائمين، دون أن يزعجهم بنغم نشاز يوقظهم من السبات.

٢-وأما الغربال الثاني، فهو غربال اجتماعي، فكري إيديولوجي، يكمل مهمة الغربال السياسي، ويتولى تصفية ما تسرب عبره من عناوين، وهذا الغربال يقوم على تخوم الاتجاهات الفكرية المتعددة في المجتمع العربي، ويفرزها ذات اليمين وذات الشمال، ويرفع بينها الحواجز والجدران، ويفرض وصايته على

العقول والأفكار، متسلحاً بكل أسلحة التسلط والإرهاب الفكري، من تقليدية، ومحدثة، ليمنع المتدين أن يقرأ للعلماني، ويمنع العلماني أن يقرأ للمتدين، فلا حوار ولا تفاهم، بل قطيعة تؤجج نار العداوة والبغضاء، نتيجة جهل كل منهما بالآخر، والإنسان بطبعه عدو ما يجهل.

وهكذا تستحكم الأزمة، وتستمر ساحة توزيع الكتاب بالتضيق، فما سمح منه بمروره عبر غربال الحدود السياسية، يقوم غربال الحواجز الفكرية بفرزه وتصنيفه، والحد من انتشاره، ليقتصر على أصحاب الاتجاه الواحد.

والآن، بعد أن عرضنا أزمة القراءة، وكشفنا عن بعض أسبابها؛ السطحية والواهية والعميقة المتجذرة، ما هي الحلول الكفيلة بمعالجتها؟

كيف نستطيع أن نخفف من ظاهرة (العزوف عن القراءة)؟ ونحوِّل مجتمعنا العربي إلى مجتمع قارئ؟ ونرفع من قيمة الأفكار؟ ونعلي من شأن الكتاب؟ ونمضي قدماً في ركاب العلم، لنواكب عصر المعلومات؟

أعتقد أن هذا التحول يحتاج، قبل كل شيء، إلى توفير المناخ الثقافي الملائم، وكل الوصفات والحلول التفصيلية لأزمة القراءة، لا يمكن أن تكون فعالة ومثمرة ما لم يتوافر هذا المناخ، ولتوفير المناخ الثقافي الملائم لابد من طرح بعض القضايا المتصلة به، مثل: الإبداع، والنقد، والتعدد، والحوار، والوعي. وسنتناولها بالقدر الذي يسمح به الوقت المخصص لهذه المحاضرة، وإنها لقضايا مترابطة، يأخذ بعضها برقاب بعض، ويترتب بعضها على بعض:

فالقراءة لا تنمو بغير إبداع، والإبداع لا يزكو بغير نقد، والنقد لا يثور بدون تعدد، والتعدد لابد أن يثمر الاختلاف، والاختلاف نعمة امتن الله تعالى بها على العباد، وسيلةً لصقل أفكارهم وتنميتها، والأفكار لا تنمو بغير الحوار، والحوار لا يؤتي أُكله بغير وعي.

لقد ملَّ الناس من التكرار والاجترار والتقليد والمحاكاة، وعزف ألحان المسايرة والخنوع، والتطبيل للفكر السائد، والتصفيق للثقافة المسيطرة، وأدركوا بإحساسهم الفطري أن واقع كل أمة إنما هو ثمرة لما تحمله من أفكار، وأن

(التخلف) إنما هو ثمرة للثقافة السلبية المعششة في الأذهان، وأن الخروج من حمأة التخلف يقتضي البحث عن رؤى جديدة، خارج إطار ثقافاتنا التقليدية السائدة، إذ لو كان ما نحمله من أفكار قادراً على إخراجنا من وحل التخلف، لما تخبطنا فيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١٣/١١].

فهل لمفكرينا وكتابنا، أن يستنفروا أذهانهم وأقلامهم على طريق الإبداع؟ ويشقوا طريقهم على محور التحدي، يصارعون المناهج المعتمدة، والقناعات الراسخة، والتقاليد البالية، ويضيفون إلى تراث الأمة الفكري لبنة جديدة ثرة، تعبر عن جيل فذّ معطاء وفعال؟ ذلك أن الجيل الذي يعجزه عن الإضافة، لن يقف عنده التاريخ، بل يتجاوزه إلى حيث الفعالية والإبداع.

وهل ستنبري الأقلام الحرة الواعية، **للنقد** البناء، كي تعيد إلينا أجواء الصراعات الأدبية، التي كانت سائدة في أواسط القرن، تحرك الساحة الأدبية، وتشحذ الأفكار، بما تثيره من عواصف النقد والتحليل والمناقشة، كالتي ثارت بين المازني وطه حسين والعقاد والرافعي في مصر، ونظرائهم في شتى الأقطار العربية، تسهم في حركة الفكر ، وتضع المفكرين أمام مسؤولياتهم، فلا يلقون الكلام جزافاً، ولا يطلقونه على عواهنه، وبذلك تثير لدى الناس شهوة القراءة.

وهل سيمارس مفكرونا الإبداع، والاختراق الفكري، بوصفه واجباً، يؤدونه من طرف واحد، لا حقّاً ينتظرون من يمنحهم إياه، ويأذن لهم به، وذلك هو الفرق بين الحق والواجب؛ الواجب الذي يقوم به المرء تلقائياً من طرف واحد، يندفع لأدائه بإحساسه الذاتي **بالمسؤولية**، لا ينتظر الإذن له به من أحد، والحق لابد له من طرفين: مانحٍ له، ومطالبٍ به، وشتان! فالواجب لغة الأنبياء والمصلحين يتحملون في سبيله صنوف الإعراض والتكذيب والأذى، والحق لغة العجز والكلالة والانتظار، ورحم الله من قال: ((في بلد كل من فيه يطالب بالحقوق، من يعطي هذه الحقوق، ولمن؟)).

وفي طريقنا لأداء واجب الإبداع، والجهر بما نعتقد أنه الحق، هل سنتحرر من ربقة الحجر **والوصاية** على الأفكار، بكل أشكالها؛ الآبائية أو الدينية أو السياسية

أو الإيديولوجية؟ لنُقبل على الحوار في ظل تعدد الآراء، وتقبُّل الآخر المخالف لنا في الرأي؟

إن الوصاية على الأفكار، وأنظمةَ الحجر الفكري، غالباً ما تكون منطلقة من دوافع نبيلةٍ تسوغها، مثل الحرص على تحصين المجتمع من التلوث الثقافي، والحرص على ثقافة الأجيال أن تضل في متاهة الأفكار الميتة التي فات أوانها، أو الخاطئة التي ثبت إخفاقها، أو الرخيصة التي تثير غرائزهم الهابطة.. وإنها لدوافع نبيلة حقاً..

ولكن.. من الذي يملك حق هذه الوصاية؟ وما هي معاييره؟ وما هي اتجاهاته؟ وما لون الثقافة التي سيلزمنا بها، ويحصرنا في إطارها؟ ويضعُ لذلك الحجب على حافتي أوجهنا، كي لا تزيغ أعيننا إلى يمين أو شمال؟ ويقيد أبصارنا ورؤانا في مساره الوحيد؟ وأي إبداع يمكن له أن ينمو في ظل هذه الوصاية وثقافة الاتجاه الواحد، سوءً أكانت آبائية أو دينية أو سياسية؟

لقد ذكر الله تعالى كل أشكال هذه الوصاية في معرض الذم، ليحذرنا من الركون، والاستكانة إليها: ﴿قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤/٢٦]، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١/٩] ﴿رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب: ٦٧/٣٣].

ولنفرض أن الوصي على أفكارنا كان سلفياً، يرى أن العلم قد انتهى عند الأقدمين! وأنه لم يترك الأول للآخر شيئاً يزيد فيه أو يحذف منه! وأن كل بدعة في الفكر ضلالة! وأن البشرية ماضية إلى فسادها ونهايتها! وأن تاريخ الإنسان يمضي منكوصاً على عقبيه؛ ماضيه أرقى من حاضره، وحاضره أرقى من مستقبله! فأيُّ ثقافة سنتجرعها في ظل وصايته؟! وأيُّ حرمان من ثمرات الفكر والإبداع سوف يحيق بنا جراء محبته لنا، وخوفه علينا من الضياع والهلاك؟!

وهل سيكون حالنا أفضل مع وصي علماني؟ يخيل إليه أن القطيعة المعرفية مع التراث هي سبيلنا الأوحد للخروج من تخلفنا، وأن ينابيع الحقيقة قد تفجرت في أرضه، فأينعت جنات خلد، انتهى إليها تاريخ المعرفة؟

كيف ستنمو الأفكار، وتتولد الرؤى في أمة تتناوشها الوصايات المتناقضة؟

وإذا كان الصينيون القدامى، قد قيدوا أرجل الأطفال في قوالب تمنعها من النمو فوق الحد المقرر لها في مقاييسهم للجمال، فهل سيستطيع أحد أن يحجر على عقول الأجيال، ويحصرَها في قوالب تمنعها من التفكير خارج النمط المطلوب، في مفاهيمه للثقافة والمعرفة؟!

ولئن استطاع أحد أن يزين لها قيود التفكير، ويربط على قلوبها، فما أحسبها سيطول بها الأمد حتى تفلت من القيود، وتنطلق حرة كما أراد لها الله خالقها، الذي ميز الإنسان بالعقل، ومنحه حرية الاختيار، وسلحه بوسائل تحصيل المعرفة، وجعله مسؤولاً أمامه عنها، مباشرة بلا واسطة: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦/١٧].

إن ثقافة البعد الواحد، عقيمة لا قدرة لها على النماء، تحمل في ذاتها بذور الفناء، وما أمر الاتحاد السوفييتي عنا ببعيد، لم تحمه وصايته على الأفكار ولا ترسانته النووية من التفسخ والانهيار.

ثم إن أنظمة الحجر الفكري مناقضة للفطرة الإنسانية، فلقد رُكِّب في فطرة الإنسان حب الاطلاع، وأن كل ممنوع مرغوب، وكل محجوب مطلوب.

ولقد فطن بعض الناشرين لهذه الظاهرة في فطرة الإنسان، فاستخدموها وسيلة للترويج؛ يطلقون إشاعات المنع لكتاب يريدون ترويجه، ويسترسل بعضهم فيكتب في إعلان تجاري: (كتاب مصادر)، فيقبل الناس على اقتنائه قبل أن يجمع من الأسواق، وتفوتهم الفرصة.

أما فتاوى التكفير، فكانت أجدى في الترويج لبعض الكتاب من أي إعلان تجاري مأجور.

و لم تترك تقنيات الاتصال الحديثة، فرصة لأنظمة الحجر الفكري، تمكنها من تطبيق أنظمتِها، حيث أصبح في مقدور أي إنسان أن يروي ظمأه الفكري، نَسخاً بآلة تصوير، أو (فاكساً) عبر الأثير، أو ضوءاً على شاشة حاسب، تمده به شبكات الاتصال والمعلومات.

فحتام نتشبث بهذه الأنظمة، وقد باتت عديمة الجدوى؟!

لندعِ الزهرات كلها تتفتح، كما في المثل الصيني.

إن بارقة الحقيقة لا تنقدح إلا باحتكاك الأفكار، كما في المثل التركي.

ولنثق بالعقل الذي وهبه الله تعالى للإنسان، وكرمه به، ومنحه بواسطته القدرة على تمييز الخير من الشر: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوّاها (*) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها (*) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها (*) وَقَدْ خابَ مَنْ دَسّاها﴾ [الشمس: ٩١/٧-١٠].

ولنرفع وصايتنا عنه، فقد منع الله رسله وأنبياءه من هذه الوصاية، فقال لصالح: ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنا الْحِسابُ﴾ [الرعد: ١٣/٤٠]، وكرر قوله لكل الرسل: ﴿وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤/٥٤]، وقال لمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٨٨/٢٢]، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/٩٩].

وقد رفع القرآن شعار ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]، وفي الوقت الذي كان الناس يُكْرَهون فيه على دين ملوكهم، وكان ملكهم يصيح بهم: ﴿ما أُرِيكُمْ إِلاّ ما أَرَى﴾ [غافر: ٤٠/٢٩]، مؤكداً أن الأفكار لا تُحصَّل بالإكراه، وأن أحداً لن يستطيع أن يدخل إلى تلافيف دماغ إنسان ليغير من أفكاره إلا بالإقناع بالحجة، وبالبلاغ المبين، قد يستطيع أن يُنطِق لسانَه بخلاف ما ينطوي عليه جنانُه، اتقاء الفتنة والاضطهاد، ﴿إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ﴾ [النحل: ١٦/١٠٦]، لكنه بذلك سيكون قد بذر في المجتمع بذور النفاق، ومجتمعُ النفاق لا يزكو فيه فكر، ولا يمضي إلى سبيل أقوم.

ولم تكن ثقة الله تعالى بالعقل الإنساني محدودة ﴿وَقالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٦٧/١٠]، ولم تكن حرية الإنسان بالتالي مقيدة ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ١٨/٢٩].

فإذا كان الله تعالى قد منح الإنسان كل هذه الحرية، و لم يضق ذرعاً بكفره به، و لم يمنح أنبياءه حق الوصاية عليه، أفيليق بنا أن نمارس هذه الوصاية بحجة الخوف عليه من الزيغ والضلال؟!

إن أنظمة الحجر والوصاية على الأفكار، لا تستطيع أن تحمي المجتمع من التلوث، إنما الذي يحميه هو إقباله على القراءة الواعية، حثه على القراءة، تكوين عادة القراءة لديه وتنميتها، فالقراءة تصحح أخطاءها، ووعي القارئ هو (جهاز المناعة) القادر على تحصين المجتمع وتنقية أجوائه الثقافية، وهو (جهاز الرقابة) القادر على توجيه الثقافة في مسارها القويم؛ فإعراضه عن الغثاثة والأفكار الميتة، سيجبر أصحابها على المسارعة لدفنها، قبل أن تتفسخ وتؤذيهم بنتنها، وإقبالُه على الأفكار الحية النافعة، سيروج لها ويفتح لها باب الصدارة: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤/٨]، وقانون الزبد كفيل بهذه التصفية والتنقية للأفكار ﴿فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧/١٣].

وبعد،

فإني ألمح في هذا النشاط الثقافي الذي يقوم به اتحاد الطلبة في كلية الطب البشري وغيرها من الكليات العلمية بوادر صحوة ثقافية طيبة، تدل على أن طلبتنا لم يكتفوا بما يحصلون من معلومات ترضي طموحهم، وتتيح لهم النجاح في نطاق تخصصهم المهني، و لم يغفلوا عن الأخطار الثقافية المحدقة بأمتهم، وعن أشكال الغزو الفكري ومخططات الاختراق الثقافي التي تُعد لهم من قبل سدنة النظام الدولي الجديد، ووكلائهم في المنطقة، الذين يحتكرون المعرفة والتكنولوجيا، ويتربعون – مستكبرين – على عرش العالم، مطمئنين إلى أن أبناء الحضارات العريقة في الشرق ما زالوا يغطون في نوم عميق، ولسوف يضربون على آذانهم بأنواع من الرقى والشعوذات الفكرية والإعلامية، حتى يستمروا في سباتهم. ولسوف يبذلون كل جهودهم لإخفات كل ضجيج، وإلجام كل حركة تساعد على يقظتهم، ونهوضهم لاستعادة دورهم الحضاري، وكسر احتكارهم

المعرفة، وفك قيود التبعية، وإنهاء الامتيازات التي خصوا أنفسهم بها، واختراق حواجز الإعاقة، وفتح ثقوب في الجدار الذي أقاموه ليحجب عنهم أشعة الشمس، تتسرب منها أشعة النور.

لئن كنا قد استطعنا أن نُمِدَّ مجتمعاتنا بشباب مؤهل علمياً ومهنياً للقيام بدوره في مختلَف التخصصات المهنية، وزودناها بالطبيب والمهندس والإداري والمحاسب والفني والمعلم الأكفياء، فهل نحن مطمئنون إلى مستوى وفعالية ثقافتهم الإنسانية وقدرتهم على مواجهة التحديات الفكرية الإقليمية والدولية المعاصرة؟

إن هذا السؤال مطروح على مستوى العالم كله، ويشكل هاجساً تربوياً دولياً للمؤسسات الدولية المعنية، ومن باب أولى أن يشكل هاجساً تربوياً لنا، يبدو واضحاً في مثل هذه الأنشطة الثقافية في كلياتنا العلمية.

إن على شبابنا أن يوسعوا معرفتهم بما يحرك العصر من علاقات متشابكة بين عوالم السياسة والاقتصاد والاجتماع، ومنجزات التكنولوجيا في حقول التواصل والإعلام والمعلومات، وأن يتملكوا القدرة على استيعاب تراثهم، كي يتمكنوا من تحليله بموضوعية، مستخدمين وسائل المعرفة العصرية، ومناهج البحث المتطورة، حتى يعيدوا تركيبه بما يصلح لجيلهم ويضيفوا إليه ما ينميه من أجل أبنائهم وأحفادهم.

إنني جد سعيد بأسبوعكم الثقافي هذا، والذي ينم عن إحساسكم العميق بهموم أمتكم، وتحديات العصر، وآفاق المستقبل، والذي أعُدُّه إسهاماً كبيراً في الجهود التي ينبغي أن تبذل من أجل تنشيط القراءة، وتنمية الرغبة بالمطالعة وإعلاء شأن الكتاب، ورفع قيمة الفكر، وإرساء قواعد الحوار، وإلغاء الحواجز بين الاتجاهات الفكرية المتعددة، والتحررِ من عقدة العنف، والخروج من عالم الأوثان، والدخول بجدية إلى عالم (الأفكار).

الفصل الرابع

الحوار والتعايش

تلازم النهوض الفكري والاجتماعي

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

*﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (*) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ (*) يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوّابٌ رَحِيمٌ (*) يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٠-١٣].

*أيها السادة !

يفترض في عريف الندوة أن يكون متقناً لقواعد البروتوكول، عارفاً لمراتب الناس، محيطاً بموضوع الندوة[١].

وبضاعتي في ذلك كله قليلة مزجاة..

ربما يكون في ذلك فائدة لكم؛ توفر عليكم عناء الصبر على الدهاليز الطويلة، التي اعتادها البعض في تقديمهم للخطباء، والعقيب على كلماتهم، في وقتٍ أنتم فيه أشدُّ شوقاً إلى الاستماعِ المباشر إلى خطبائكم، والتعرفِ على آرائهم، ومحاورتهم.

[١] تقديم ندوة (الحوار سبيل التعايش) التي أقيمت في معرض بيروت الدائم للكتاب، وشارك فيها سماحة العلامة محمد مهدي شمس الدين، وفضيلة المفكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وفضيلة المفكر الأستاذ جودت سعيد. وذلك في أيار / ١٩٩٤م.

الشيء الذي أجدني كلفاً به، هو تقديري لقيمة (الوقت)، وحرصي على ضبطه واستغلاله، وتجنبي لإضاعته على نفسي وعلى الآخرين..

فالوقت عندي هو (الحياة)، والحياة أثمن من أن تُضيَّع، وأجدر بأن تُصان لتؤتي أطيب الثمرات بإذن ربها، وتوفيقه..

وحتى لا أسترسل، وأقع فيما أحاذره، سأدخل في موضوعي، دون مقدمات، لأعرِّفكم بموضوعات الندوة، وبرجالاتها، في حدود معلوماتي التي أعترف سلفاً بضآلتها:

فأما موضوعات الندوة، فإنها تدور حول: الاختلاف والتعدد، والحوار، والتعايش.. كلمات قليلة، ذاتُ مضامين كبيرة؛ تثبت الأحداث المتلاحقة، في مجتمعاتنا الإسلامية المتباعدة، من لبنان إلى أفغانستان.. إلى مصر والجزائر فاليمن.. حاجتنا الماسة إليها.

لقد آن الأوان لكي ننبذ العنف وسيلة لحل مشكلاتنا، ونلجأ إلى الحوار عبر التعدد، كي ننعم بالتعايش رغم الاختلاف..

وإذا صح أن أفعال الإنسان تعكس قناعاته الفكرية، وأن واقعه نتيجةٌ لتصوراته الذهنية؛ فإن ضروب القصور والعجز والانقسام، والتخلف والتناحر والانهزام، التي نعانيها في حياتنا، لتشير بأصبع الاتهام إلى المناخ التربوي الذي نستشفه، من خلال المدرسة والمعبد ووسائل الإعلام، وإلى الغذاء الفكري الذي تمدنا به: مناهجنا التربوية، ومكتباتنا الثقافية، ومنابرنا الإعلامية..

لقد عجزت ثقافتنا عن تحقيق أبسط أشكال (وحدة الصف)، في مرحلة نحن أحوج ما نكون فيها إلى رصِّ الصفوف، في مواجهة نظام دولي جديد، يحتكر العلم والمعرفة والتكنولوجيا، ويخطط لإذلالنا وإضعافنا، من خلال تفريق كلمتنا، وتمزيق صفوفنا؛ لكي يضمن تبعيتنا له، وقناعتنا بدور (الكَلِّ على مولاه)، يقدم له خيراته وعمالته بأبخس الأسعار، ويستهلك منتجات (مولاه)، التي يجهل كنهها، مستورداً لها بأعلى الأسعار..

لقد مللنا أفكارنا هذه، التي اهترأت من كثرة التكرار، وبليت من كثرة الاجترار، وشاخت من طول الأمد، وران عليها من الصدأ ما شغلنا بمظاهرها عن جواهرها، وبشكلياتها عن حقائقها، وقادتنا بخطابها العاطفي، وتأويلاتها المتشددة إلى التشرذم والقطيعة، بل إلى التكفير، وسل السيوف، وإهدار الدماء.. فوقعنا فيما حذرنا الله تعالى منه: ﴿وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦/٨]، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢/٣٣].

إن أمراضنا الثقافية المزمنة التي نعانيها لتحتاج إلى أطباء مَهَرة، من طراز جيد وفريد، لديهم القدرة على تجاوز الأطر الفكرية السائدة، والمفاهيم التقليدية المسيطرة.. إلى مستويات أكثر توغلاً في الأعماق، ورؤى أوسع مدىً في الآفاق.

وإنها للحظة تاريخية نادرة.. أن تجتمع لنا في هذا الصرح الثقافي المجيد (معرض بيروت الدائم للكتاب).. في هذا البلد الصامد الذي لا تزيده الأزمات إلا تمسكاً بأهداب الحرية الفكرية (لبنان الحبيب).. أن تجتمع لنا هذه النخبة الفكرية المميزة، من أعلام الأمة الذين اتخذوا (الحوار) منهجاً لهم لا يحيدون عنه في أحلك الظروف، وطريقاً يلتمسونه مهما تنكبه الآخرون.

لقد استطاعوا جميعاً أن يعمموا (الخطاب الإسلامي)، ويتجاوزوا به الدائرة الضيقة إلى دوائر أوسع، وآفاق أرحب.. وأن يصلوا به إلى شرائح اجتماعية، تنتمي إلى مختلف المذاهب والتيارات الفكرية، أخذت تصغي إليهم، وتحاورهم فكان لهم الفضل الكبير في كسر الحواجز ومد الجسور.. وكانوا بحقٍّ دعاةً إلى الله – كما أمر الله – بالحكمة والموعظة الحسنة؛ يجددون لهذه الأمة أمر دينها، ويرسمون لها طريق خلاصها، ويجادلون عنها بالتي هي أحسن..

إنهم رجالٌ عمالقةٌ، لمواضيع كبيرةٍ.. لن يزيدكم تعريفي بهم علماً، ولن يزيدهم ذكري لمحامدهم شرفاً، فأنتم أدرى بهم لمعايشتكم لهم، (ومن ثمارهم تعرفونهم)، وهم في غنىً عن التعريف، بل إني لعلى يقين من أن الإطراء والإطناب يسوؤهم، لأنهم دعاة إلى الله، يدخرون عنده أجورهم:

سماحة العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين

رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، ولد في النجف الأشرف بالعراق عام ١٩٣٦م، وكان والده الشيخ عبد الكريم شمس الدين قد هاجر من لبنان إلى العراق لطلب العلم، وعندما أزمع العودة إلى لبنان ترك ولده، وهو في الثانية عشرة من عمره لاستكمال تحصيله، في ظروف معيشية قاسية، ولم تكن سنوات جهاده الدعوي في العراق أقل شدة وقلقاً من سنوات التحصيل .. مما كان له أبلغ الأثر في تكوين شخصيته العلمية والقيادية، وحمل مبكراً هموم الدعوة الإسلامية، داعية إلى الإصلاح، والتغيير، بوعي لمستجدات العصر، وموضوعية تترفع عن الخرافة والتهريج.

ولم يكن (لبنان) وطن الأهل والعشيرة بعيداً عن دائرة اهتمامه، وتوقه إلى متابعة جهاده فيه، فعاد إليه عام ١٩٦٩م، وترأس منذ اليوم الأول لوجوده فيه الجمعية الخيرية الثقافية، فأعطاها بعدها الثقافي والاجتماعي، بما بعث في أعضائها من روح الألفة والتعاون..

ثم مضى يحاضر، ويشارك في الندوات، ويسهم في بناء المؤسسات التربوية والمهنية؛ مدارس ومعاهد لن يكون آخرها مدرسة الضحى، في مجال التعليم وبناء الأجيال الإسلامية الواعية.

وعلى الرغم من انشغال الشيخ في قضايا المسلمين الاجتماعية والسياسية، فإنه لم يغفل عن التأليف، مقدراً للكتاب دوره في التغيير، ومقدماً للفكر الإسلامي ما يربو على العشرين كتاباً، توزعت موضوعاتها بين الفقه والفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع، وأظهرت ما يتمتع به العلامة من عمق واجتهاد، وتعامل مباشر مع النصوص، وإحاطة بالواقع وبالمستجدات..

هذا فضلاً عن عشرات المقالات، ومئات المحاضرات التي وضح فيها مفاهيمه عن الإصلاح والتغيير، وعن الديمقراطية العددية القائمة على الشورى، وعن العلمانية، وعن الحوار الإسلامي المسيحي، وعن الصراع والقوة، وعن منطق الحرب والسلم..

إنه ركيزة أساسية من ركائز الحركة الإسلامية المنطلقة نحو الحوار والتعايش.

فضيلة الأستاذ جودت سعيد

عرفت فيه، مذ عرفته قبل ثلث قرن؛ حرية الرأي، واحترام الآخر، والتشبث بالحق، وإيثار الحوار، ونبذ التعصب، وكراهية العنف..

لقد خرج من تجربته الذاتية المبكرة، مع جدته، ومع خطيب القرية، بأول درسٍ علمه أن يبحث عن الحقيقة، وراء الأفكار السائدة في محيطه، وأن يتجاوز المفاهيم المستحوذة على العقول، بالعودة إلى الأصول، وأن يقتحم الأسوار، ويخترق الحواجز، ويثقب الجدران، ويقلب وجهه في السماء، ويحدق في آيات الله المنبثة في الآفاق والأنفس..

ومن تأملاته الأولى في قريته الهادئة (بئر عجم) في محافظة القنيطرة السورية، إلى صخب القاهرة ودراسات الأزهر والتجارب المريرة للحركة الإسلامية فيها، توالت العبر التي تعمقت لديه، فكان من حصيلتها إيمان لا يتزعزع بالإنسان الذي كرمه الله، فأسجد له ملائكته، وبالعقل الذي ميز الإنسان عن سائر المخلوقات، بحرية الاختيار، وبالعلم الذي هو ثمرة العقل، وبالقراءة التي هي رحم العلم، وبالحرية التي هي مناخ القراءة، وبالحوار الذي هو نتيجة الحرية، وباحترام الآخر الذي هو مقتضى الحوار.

ومضى في ظل قناعاته يخطب، ويكتب ويحاور، ويؤلف، على مدى أكثر من ربع قرن، وانتظمت مؤلفاته تحت عنوان شامل (سنن تغيير النفس والمجتمع)، وكتب مقدمات مطوَّلة لكتب كثيرة، منها كتاب (أيها المخلفون! الله لا الملك) لمولانا محمد علي.

لقد ضمَّن كتبه ومقدماته ومقالاته عصارة أفكاره التي كان يهدف منها إلى تحرير (الإنسان) من ربقة التخلف، وأغلال التقليد، وظاهرة الكلالة، وعقدة العنف، وظلام السرية، ومذلة الخوف، وضبابية الرؤية.

ولم يكن يقدم أفكاره مجرد (نظريات)، بل كان يعيشها ويمارسها، فكان (القدوة) الذي يضرب للناس (المثل) في نفسه حتى يعلمهم كيف تكون (الكلمة)

أمضى من (الرصاصة)، والفكرة أقوى من (السلاح)، وكيف يمكن للمثقف أن يجهر بمبادئه، ويلتزم بقناعاته، لا يلويه عنها إغراء ولا وعيد، ويمارس حريته في التعبير من طرف واحد، لا ينتظر الإذن له بممارستها من أحد.

أقدمه لكم في جسمه النحيل، وسمته الجليل، تتساءلون: هل نحن أمام ناسك زاهد؟ أم صوفي متعبد؟ أم فيلسوف سادر؟ أم عالمٍ متبتل؟ أم مفكر إنسان؟

نعم: أنتم أمام ذلك كله.. أمام جودت سعيد.

فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

لقد تكفلت كتبه التي أربت على الثلاثين؛ وانتشرت في سائر الأمصار، وترجم بعضها إلى العديد من اللغات، وشكلت في معظمها زاداً فكرياً أساسياً للشباب المتعطش إلى المعرفة، كما تكفلت أحاديثه الإذاعية والتلفزيونية، ودروسه الأكاديمية في كلية الشريعة بجامعة دمشق، والدورية في مساجد دمشق، ومحاضراته ومشاركاته الفعالة في المؤتمرات العلمية والندوات الفكرية.. تكفل كل ذلك بتعريفكم به، فلن يزيدكم حديثي عنه إلا تأكيداً لما وقر في صدوركم من حب له، وإجلال وتقدير.

ولد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في عام ١٩٢٩ في عين ديوار؛ القرية السورية النائية في شمال سورية على حدودها مع تركيا، وهاجر في طفولته المبكرة مع والده العالم الجليل ملا رمضان البوطي، وعمره لا يتجاوز أربع سنين، فراراً بدينهم من (فتنة) مصطفى كمال أتاتورك، الذي أمعن في التنكيل بعلماء المسلمين واضطهادهم، محاولاً استئصال شأفة الإسلام من نفوس من استنارت قلوبهم به.. وهيهات..

ولقد نهل من علم والده الغزير، ومن فقهه العميق، وبصره النافذ في الأمور، وبعد نظره في المعضلات.. وظلَّ على برِّه وإجلاله لوالده، لا يقطع أمراً دون مشورته، إلى أن توفاه الله عام ١٩٩٠.

وتابع تحصيله العلمي على يد علماء الشام، وفي معهد التوجيه الإسلامي في دمشق، ثم حمل الدكتوراه في أصول الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر عام ١٩٦٥.

ومارس التدريس أثناء طلبه للعلم، إلى أن استقر في كلية الشريعة بجامعة دمشق، أستاذاً فعميداً، وهو حالياً رئيس لقسم العقائد والأديان فيها.

لم يغفل العالم الإسلامي عن هذه الموهبة المتفتحة، فمثل هذا النبوغ العلمي المتميز، لن يُسمح له بقصر جهوده على بلد واحد، ولن يبخل هو على شباب العالم الإسلامي المتعطش إلى علمه، فها هو ذا يطوف على معظم البلدان داخل العالم الإسلامي وخارجه، متجشماً عناء السفر، ملبياً كل دعوة مخلصة.

الفصل الخامس

التغيير بين

المصطلح والآفاق

في عالم يحشد التحديات ويحاصرنا بها، تتفاقم الأزمات والمشكلات وتتباين الآراء في طريقة المواجهة سواء أكانت هذه المواجهة للوافد من الخارج أم للمستثار في الداخل.

ولا ينكر عاقل ما للحوار من أثر عظيم في بناء مواجهة عقلانية متينة، تتعاضد من خلاله الجهود والآمال لتحقيق واقع أفضل وأسمى. ولا شك أن الندوات إحدى أرفع أنواع الحوار؛ لما تمثله من تمازج للآراء وتقارب للأفكار وعمق للحلول، وخاصة إذا جمعت هذه الندوات رجالاً من صفوة أعلام الفكر في وقتنا الحاضر، ممن يتميزون بمتابعتهم الحريصة لتحولات العصر وحاجات مجتمعاتهم وما تمور به من أزمات وإرهاصات[1].

أيها السيدات والسادة:

إن دار الفكر المعاصر، ومعرِض بيروتَ الدائمَ للكتاب، ليرحبان بكم أجمل الترحيب، ويسعدُهما أن يكون هذا اللقاء تقليدياً دورياً يلتزمانه، بدأت دورته الأولة سنويةً، ونأمل لدوراته القادمة أن تتقارب وتتسارع، بحجم تفاقم المشكلات والأزمات التي تعاني منها أمتنا.

إن الذي يحدونا ويملأ نفوسنا اعتزازاً وأملاً:

أن الذين يلبون دعوتنا من الإخوة والأخوات الحاضرين، هم نخبة المجتمع، الذين يحملون هموم أمتهم، ويألمون لما تعانيه من مشكلات، ويلوبون هنا وهناك بحثاً عن الحل والمخرج، وهم الجديرون متى انكشف لهم الطريق، واتضحت الرؤية بأن يكونوا رواد الركب وطلائع التغيير، إن شاء الله.

---

[1] تقديم الندوة التي أقيمت في معرض بيروت الدائم للكتاب وجمعت الأستاذين: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والمفكر جودت سعيد بتاريخ ٢/٦/١٩٩٥م.

وأن الذين يحاضروننا من العلماء الأجلاء، هم قادة الفكر ومصابيحُ الهدى الذين ملكوا أزمَّة العلم، وتمرسوا بفهم الواقع، وبصُروا بمشكلات المجتمع، وكشفوا عن علله، وشخصوا أمراضه، فكانوا الأجدر بحمل مسؤولية معالجته، حتى يستعيد صحته وعافيته، ولم أقدمهم لكم، فهم أجل من أن يعرَّفوا، ومن ثمارهم تعرفونهم.

وأن الموضوعات التي يناقشونها، ليست من ترف الفكر، ولا من نافلة القول، إنما هي من صميم الواقع المعاش.

وعلى ضوء تصوراتنا لهذه الموضوعات، والأفكار التي نحملها عنها، يتحرك مجتمعنا؛ إما إلى هلاكه وحتفه، وإما إلى نهضته وازدهاره.

فحين طرح مفكرونا الأجلاء في الندوة السابقة موضوع (الحوار) سبيلاً إلى (التعايش)، كان هاجسَهم الكبيرَ، ما تعانيه الأمة من تمزق وتنازع وتفرق، نتيجة أفكارها الخاطئة عن التعدد والاختلاف والحرية والديمقراطية.

وحين يحدثوننا اليوم عن (التغيير)، فإننا نتطلع إلى أن نجد لديهم الأجوبة على تساؤلاتنا.

-هل التغيير ضرورة؟

-وما الذي يجب أن نغيره؟ أهو المنكر؟

-وما المنكر؟ وما المعروف؟

-وكيف نغير المنكر؟ هل نبسط إليه أيدينا؟ أم نرفع في وجهه أصواتنا؟ أم نكتفي بإنكاره في قلوبنا، وذلك أضعف الإيمان؟

-وهل للتغيير أولويات تدعونا للقول بمنكر، تجنباً للوقوع في منكر أكبر منه؟

-هل نبدأ التغيير من الحكم أم من المجتمع؟

-وهل للتغيير مراحل انتقال، ومعارج يتدرج فيها حتى يستقر في النفوس قناعةً ووجداناً، قبل أن يفرض بسيف القانون رغباً ورهباً؟

-أم التغيير يجب أن يكون ثورة عارمة، تحرق المراحل، وتقضي على الفساد في الأرض ليلة حالكة الظلام، فتذره قاعاً صفصفاً؟

-وهل الفساد والصلاح في أذهاننا نسختان لصورةٍ إحداهما سالبة والأخرى موجبة، إذا استبدلنا إحداهما بالأخرى، نكون قد أحرزنا التغيير، وكُفينا شر القتال؟

.بمعنى آخر، هل التغيير يحتاج إلى تغيير، على الطريقة التي يسميها الماركسيون (الثورة الدائمة)؟

وهل (الأفضل) الذي تحولنا إليه بالتغيير، سيخلي مكانه لما هو (أفضل منه)؟ أم علينا أن نتشبث به على أنه نهاية الفضل والخير؟ ولا خير بعده؟

إن أعظم التحولات في تاريخ البشرية تم على أيدي الأنبياء، حتى قيل: إن كل حضارة في تاريخ البشر، لم تتقد جذوتها إلا بشرارةٍ من الدين.

لكن أعظم العقبات في وجه الإصلاح والتغيير، كان من قبل الذين جاؤوا بعد الأنبياء: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣/٥]، ﴿إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤/٩]، يقيمون للناس محاكمَ ليفتنوهم عن دينهم، ويمنعوا ألسنتهم من الكلام، ويلجموا عقولهم عن التفكير؟

فيا عجباً ! كيف يكون الأنبياء أعظم بناة للإصلاح والتغيير، ويكون مَنْ بعدهم أكبر عقبة كؤود في وجه الإصلاح والتغيير؟!

أهو طول الأمد الذي حذر الله تعالى المؤمنين منه، والوحي ما يزال يتترل عليهم:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦/٥٧].

ما الذي كان ينبغي على الذين أوتوا الكتاب من قبلُ أن يفعلــوه، كــي يتجنبــوا طولَ الأمد، فقسوةَ القلب، فالفسقَ؟!

وما الذي جعل الكتابَ يتخلف عن فاعليته، ويفقد تــأثيره علــى النــاس، وهــو موجود في أيديهم؟!

أكان عليهم أن يجددوا باستمرار فهمهم للكتاب؟

هل يتغير الفهم للكتاب من جيل إلى جيل؟

وهل يمكن لجيل لاحق أن يفهم الكتاب على وجه أفضل من الجيل السابق؟

وهل يمكن للفهم الجديد (المتغير) أن يطال المسلمات والثوابت؟

وما المتغير وما الثابت الذي لا يقبل التغيير؟

أراني أحوم حول الحمى، وليست لديَّ الرغبة ولا القــدرة علــى أن أرتــع فيــه.. فلأدعه لحُماته من العلماء الأفذاذ، لتســمعوا فيــه منــهم القــولَ الفصــلَ، والــبلاغَ المبين..

إننا جميعاً نشكوا تخلفنا وعجزنا وهواننا على الناس، ونرفــع كــل حــين أكفنــا ضارعين: ((اللهم يا مقلب القلوب والأحوال، حوِّل حالنا إلى أحسن حالٍ)).

فيأتينا الجواب من العلي القدير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مــا بِقَــوْمٍ حَتَّــى يُغَيِّــرُوا مــا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١/١٣].

ثم نلحُّ في المناجاة لرب العالمين: ربنــا! إن ركــام أوهامنــا وحجــم مشــكلاتنا أكبر من طاقتنا علــى التغــيير، و ﴿وَإِنْ لَــمْ تَغْفِــرْ لَنــا وَتَرْحَمْنــا لَنَكُــونَنَّ مِــنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣/٧].

فيجيب الرب تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَــوْمِ نُــوحٍ وَعــادٍ وَثَمُــودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنــاتِ فَــرَدُّوا أَيْــدِيَهُمْ فِــي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنّا لَفِي شَكٍّ مِمّــا تَــدْعُونَنا إِلَيْــهِ مُرِيــبٍ﴾ [إبراهيم: ٩/١٤]، ويحكي لنا القصــة المشــتركة لكــل الأنبيــاء: دعــوةٌ بالحجــة والبلاغ المبين، تقابَلُ بالتشبث بفعل الأقدمين... ومزيدٌ مــن البينــات والثبــات علــى

الحق، يقابَلُ بالأذى والتهديد... ﴿حَتَّى إِذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا﴾ [يوسف: ١٢/١١٠].. سنةً ماضية لا تتبدل.

-لكنهم يا ربُّ أنبياءُ مؤيدون بنصرك.

-قالت الرسل: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/١١].

-وقال الله تعالى: ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠].

-به ختمت النبوة، وعنده انقطع وحي السماء، و لم يبق أمامكم من أجل التغيير إلا اتباع منهج الأنبياء:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٦/٩٠]، أستميحكم عذراً فيما أطلت، وأشكر لكم حضوركم وإصغاءكم، وأتركم لمن نحن جميعاً بشوق للاستماع إليهم من علمائنا الأجلاء.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الفصل السادس

التراث في تجربة

ناشر عربي

الزُّبدة لا الزَّبد

أود أولاً أن أعتذر إليك أخي القارئ... إنني أكـره أن أدخـل إلى عالمـك، عـبر دهاليز ومقدمات مطولة، طالما أرهقت سمعك، وأتعبت بصـرك.. فأنـا أعـرف أنـك بتَّ تملُّ التكرار، والاجترار، تعـاف الفـذلكات التاريخيـة، والمـداخل التمهيديـة، وتتطلع إلى زبدة الموضوع، وخلاصة القول..

لذلك فإني أستميحك العذر في أن أفضي إليك مباشـرة بخلاصـة رأيـي، آمـلاً أن تفسح لي من سعة صدرك ما يسمح لي أن أبسط أمامـك أدلـتي، عمـلاً بالمقولـة السائرة: (قل ما شئت وعلل)[1]..

قد لا تتفق معي فيما ذهبت إليه، عبر تجـاربي ومعانـاتي، وقـد تُغضـب آرائـي بعـض المشـتغلين في صـناعة التـراث، وقـد أكـون علـى خطـأ في تصـوراتي واستنتاجاتي..

لا حرج في ذلك، فلتصبر وليصبروا، ولنتحاور بحثاً عـن الحـق والصـواب، فـإن (بارقة الحقيقة إنما تظهر من احتكاك الأفكار) كمـا في المثـل الـذي سمعتـه – مـع أصله التركي – من أخي الأستاذ الشيخ حسـام الـدين فرفـور، نقـلاً عـن والـده الشيخ صالح فرفور رحمه الله..

كما إن القانون القرآني عن ذهاب الزبد وبقاء النـافع للنـاس، سـوف يتكفـل بذهاب الأفكار الميتة التي فقدت قيمتها وجدواها، وبقـاء الأفكـار الحيـة النافعـة إلى أن يأتي ما هو خير منها وأكثر نفعاً: ﴿كَذَلِكَ يَضْـرِبُ اللَّـهُ الْحَـقَّ وَالْباطِـلَ فَأَمّـا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧/١٣].

---

[1] نشرت في مجلة (آفاق التراث) العدد (٨) آذار ١٩٩٥م.

إنني أرى في معظم الأعمال الجارية في تحقيق التراث؛ سواءً ما كان منها تحقيقاً مستعجَلاً لإدراك متطلبات السوق، وما كان تحقيقاً علمياً مدرسياً يمعن في الشرح والتعليق وإثبات فروق النسخ.. أرى في ذلك نوعاً من التكديس يجعله قاصراً على مرحلة التنقيب والجمع، لا يجاوزها إلى مراحل الانتقاء والتحليل وإعادة التركيب والبناء، التي هي وحدها الكفيلة بإعداد التراث للإفادة منه، وتوظيفه في خدمة الثقافة، في الحاضر والمستقبل.

كما أرى في موجة الإقبال على التراث؛ سواءً أكان تجميعاً عشوائياً، وتحقيقاً له وتعليقاً، من قبل المحققين والباحثين، أم كان تهافتاً على اقتناء كتب التراث من قبل جماهير القراء، ودراستها من قبل طلبة العلم، على أنها القول الفصل ونهاية العلم، نوعاً من تعطيل الأفكار، وإخلادها إلى الراحة، وهروبها من الواقع، لائذة بالجهود العلمية للأسلاف.

ويخيل إليَّ، حين أُرانا نطلب العلم من كتب التراث، لنقف عندها، أننا كمن يحمل مشكلاته المستجدة إلى مراقد الأجداد؛ يسألهم فلا يجيبون، ويستفتيهم فلا يفتون، بل هم يعرضون عنه ساخرين من عجزه وكلالته.

هل أنا، أهوِّن من شأن التراث، أو أحط من قدره، فأصنَّفَ في عداد خصومه وأعدائه؟!

معاذ الله، فأنا أَوْلى الناس بالتراث، وبالدعوة إلى التنقيب عن كنوزه وجواهره، وبالحرص على جمعه وصيانته، بوصفه الأصل الثابت، والجذور المتمكنة في الأعماق، التي تملك القدرة على تغذية سوقها وأفرعها الممتدة في الآفاق.

إنما أنا أبحث عن الطريقة التي تجعلنا نحقق التراث الماضي، وأعيننا مفتوحة على الحاضر والمستقبل؛ نقرأ فكر الأجداد، ونرنوا إلى أن نبدع كما أبدعوا؛ نستفيد من تجاربهم، ونتجنب أخطاءهم وعثراتهم، ونضيف لبنات جديدة في بناء الأفكار فوق لبناتهم، تظهر شخصيتنا، وتسوِّغ للتاريخ أن يتوقف عندنا، ليسجل إبداعنا، ولا يتجاوزنا؛ ناعتاً إيانا بالعجز والكلالة..

يجب أن ننشد من التراث زُبْدَهُ، ونعافَ زَبَدَه، والزُّبد لا يستخرج إلا بالمخض، أما الزَّبَدُ فهو الرغوة والفقاعات التي تعلو الزُّبَد عند المخض، ثم لا تلبث أن تتلاشى وتذهبَ جُفاءً.

تقدير لا تقديس

فرق كبير بين تقدير التراث وإعظامه، بوصفه اجتهاد الآباء، الذي يتمتع بكل القابلية للصواب والخطأ، ثمرةً لاختلاف الآراء والعقول، الذي امتن الله تعالى به على عباده رحمةً بهم، وتوسعةً لآفاقهم ومداركهم، ووسيلةً لتنمية أفكارهم وترقيتهم. والذي لا يتميز صوابه من خطَئه، ولا يستخرج زُبْدُه ويستبعد غثاؤه إلا بالمخض، ومقابلة بعضه ببعض.

وبين تقديس التراث بوصفه نهاية العلم، وزبدة المعرفة، وتركة الآباء الذين أتقنوا كل شيء، وأحاطوا بكل شيء علماً، ولم يتركوا لأخلافهم مجالاً للزيادة فيه، أو الحذف منه، والمقياسَ الذي تعرض عليه الجهود العلمية للمتأخرين، فيقبل منها ما كان موافقاً له، ويرفض ما خالفه أو زاد عليه.

إن تقدير التراث، وعيٌ له، ونهلٌ من موارده، وبناءٌ عليه، ومواصلةٌ للسير بعده، واستمرار في بذل الجهود العلمية، التي – بدورها – ستصبح تراثاً لأجيال قادمة.

أما تقديسُ التراث، والطوافُ حوله، وتحريمُ مخضه خشية إزعاجه، ومنع مناقشته خوفاً من إقلاقه، فهو تعطيل للتراث، وتحنيط للأجداد، وتجميد للعقول، وتثبيط للهمم، وقعود عن الاجتهاد، وتثبيت لحركة الأفكار، وارتكاس في مسيرة الإنسانية، وتشجيعٌ على الكلالة والعجز والاتكال على جهود الآباء، وتحميلُهم أعباءنا وأوزارنا، وإلزامُهم بالتفكير نيابة عنا، ومطالبتهم بالإطلال علينا من وراء القرون، لحل مشكلاتنا.

هل في هذا القول مبالغة وتهويل؟! وهل فيه مجافاةٌ للواقع، وإجحافٌ بحق العلم والعلماء؟!

لئن كان الأمر كذلك، فما علة تخلفنا وانحطاطنا، وما أسباب عجزنا عن اللحاق بركب الحضارة، وقد كنا روادها؟! وهل تؤتى الأمم إلا من قِبَل ضحالة أفكارها وخطأ تصوراتها؟!: ﴿أَوَ لَمّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هَذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٥].

وإن لم يكن في الأمر مبالغة فأين يتجلى التقديس للتراث في جهودنا العلمية الحاضرة؟

إنه يتجلى في تقديم التراث لطلابنا وأجيالنا، على أنه العلم، لا على أنه مصدر للعلم، ولقد مضى على الناس زمان، حددت فيه كتب العلم بجملة من المتون والمنظومات والشروح والحواشي، من حصَّلها فقد أحاط بالعلم، وكان يقال للطالب: إذا أردت اللغة فعليك بألفية كذا، وإذا أردت الأدب فعليك بكتاب كذا، أو كنت تطلب الفقه أو الحديث أو التفسير، فعليك بكتب كذا وكذا... وكان هذا التراث يُزَيَّن له بوصفه أهلاً للثقة والتقديس، استمد قداسته من مضي الزمن، كما كان الطالب يُحَذَّرُ من الركون إلى الدراسات الجديدة، والعلوم المستحدثة، خوفاً عليه من الانزلاق في متاهات الضلال والزيغ.

وهو يتجلى في حُمّى نشر التراث التي انتابت العالم العربي والإسلامي، في الثلث الأخير من القرن، وأفرزت ناشرين للتراث، لا يهمهم منه إلا التسابق على إعادة طبع العناوين التي يشتد عليها الطلب، تصويراً عن طبعات سقيمة غير موثقة ولا محققة، حتى اهترأت حروفها من كثرة التكرار، وتداخلت صفحاتها من شدة الإهمال، وتسترت عيوبها بأغلفة زاهية مزخرفة بالذهب، فأخذت أمكنتها على أرفف المكتبات زينة وتبركاً، واحتلت مرتبة الصدارة في أرقام المبيعات، بعيداً عن أصوات النقد، وأعين النقاد.

كما يتجلى تقديس التراث في حمى التحقيق العشوائي دون اختيار، ولا ترتيب للأولويات، فأعيد تحقيق كتب مطبوعة، دون أية دواعٍ أو تعديلات تسوِّغ الإعادة سوى المنافسة التجارية، وحُققت كتبٌ فات أوانها، ومات موضوعها، وانعدمت جدواها، لمجرد أنها لم يسبق تحقيقها.

التراث وذهاب العلم

هل يوقف التراث زيادة العلم؟ وبتعبير آخر: هل يمكن لتقديسنا للتراث، وعدِّه النموذج الأمثل أن يعكس اتجاه سير البشرية، فيجعل مثلها الأعلى في ماضيها، ويجعل جُلَّ همها أن تقرب حاضرها ومستقبلها من هذا النموذج الذي تحقق في الماضي، ويجعل إحساسها بالخيبة والفشل مستمراً، فالقرون الأولى هي خير القرون، وتتناقصُ الخيرية فيها بعد ذلك، حتى يأتي الزمان، ويعم الفساد، ويذهب العلم؟!

أنا لا أتحدث عن الثوابت، فثمة قيم ثابتة نزل بها وحي السماء، واستقرت في فطرة البشر، تضيء حياتهم على مر العصور، إنما أتحدث عن العوائق التي تقلب خط سير العلم، فتجعله ناكصاً متراجعاً بدل أن يكون نامياً متقدماً، وفي طليعتها التقديس للتراث الذي يعني تثبيت العلم، وحصره في القرون الأولى.. أتحدث عنها بوصفها واقعاً سبق أن شرحت بعض تجلياته ومظاهره من جهة، وبوصفها سبباً من أسباب التخلف عن اللحاق بركب العلم والحضارة من جهة أخرى.

إن هذا المفهوم مناقض للفطرة البشرية ومرفوض من عدة أوجه:

أ-فإذا عدنا إلى القرآن الكريم، وجدناه يقدم لنا مبادئ أساسية على شكل قوانين وسنن، تحث على إعمال العقل للاستزادة من العلم، وتدعو إلى الإبداع، وتذم التقليد:

١-ذم الآبائية، وتقليد الآباء: ﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤/٤٣]، ﴿قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤/٢٦]، ﴿قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤/٢١]، ﴿وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١/٦].

٢-الأمر بالاستزادة من العلم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤/٢٠].

٣-الأمر بالسير في الأرض لمعرفة تاريخ الخلق ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠/٢٩].

٤-استمرارية الخلق والإبداع وتولد الأجنة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١/٣٥]، ﴿وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨/١٦]، ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣/٤١].

٥-المسؤولية الفردية عن استخدام وسائل المعرفة ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦/١٧].

٦-حتمية الاختلاف، وسيلةً لإغناء الأفكار، وعدُّه نعمة امتن الله بها على عباده: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (*) إِلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨/١١-١١٩]، ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢/٣٠].

٧-ذهاب الزبد وبقاء النافع ﴿فَأَمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧/١٣].

ب-ثم إنه مناقض لمنطق التراث نفسه: فالتراث لم يقم دفعة واحدة، وإنما قام على مراحل، كان اللاحقون فيها خلفاً للسابقين، ثم أصبحوا سلفاً لمن بعدهم، لكنهم لم يتوقفوا عن العطاء، ولم يجمدوا عند آراء السلف، بل استدركوا عليهم، وحذفوا وأضافوا، ولم يرضوا أن يلتزم الناس بعدهم بآرائهم، إذا بدا لهم ما هو خير منها وأقربُ رشداً.

والسلف بعد ليسوا على فكر واحد، إنما هم مدارس فكرية متباينة، فأي هذه المدارس أحق بالتقديس؟!

ج-ولعل التاريخ يقدم لنا دليلاً من الواقع، على أن مسيرة العلم لم تتوقف، بل إن رايتها تنتقل من شعب نضبت مواهبه وجفت قدرته على الإبداع، إلى شعب ينشط لبذل جهوده الإبداعية، وإضافة جديد إلى المخزون المعرفي للبشرية. كما يؤكد لنا أن خط سير البشرية ماض في طريق التقدم والارتقاء المستمر، وأن الإنسان قد اجتاز عصور الحجر والصيد والرعي والزراعة والصناعة، إلى عصر المعلومات.

الإبداع في التراث:

هل يمكن لنا أن نكون مبدعين، ونحن نتعامل مع التـــراث، ونعـــالج فكـــر الآبـــاء؟ نعم! نستطيع أن تكون مبدعين، إذا نحن قمنا بدور الطبيـــب الـــذي يســـتولد الأجنـــة الكامنة في بطون أفكار الآباء، بدلاً من أدائنا دور (المُغَسِّـــل) الـــذي يجهزهـــا للـــدفن في مقابر التاريخ.

إن هذا الدور يتطلب منا السير في اتجاهات أربعة:

١-إحياء التراث، تجميعاً يضعه تحـــت مجهـــر البحـــث والتحليـــل، لا تكديســـاً يحنطه في متاحف التبرك والتقديس. وذلك يقتضـــي الجـــد للتوســـع في وضـــع مزيـــد من الفهارس الوصفية (الببليوغرافية) للمخطوطـــات العربيـــة، وأمـــاكن توضـــعها في مكتبات العالم، وتيسير الحصول على صـــور منـــها للبـــاحثين، واســـتخدام تقنيـــات العصر الإلكترونية من حواسيب ووسائل اتصال لتسهيل ذلك.

٢-الانتقاء من التراث، حسب مناهج تُرتب الأولويات، فتقدم العلـــوم الـــتي مـــا زالت تنبض بالحيوية، وتدعو الحاجة إليها، وتؤخر مـــا فـــات أوانـــه، ومـــا انقضـــت الفائدة منه، وما هو تكرار لا جديد فيه.

٣-تحقيق التراث: باختيار أفضـــل نســـخة، ومقابلـــة النســـخ بعضـــها بـــبعض، للوصول إلى النص الأقرب لمـــا أراده المؤلـــف، وتوثيقهـــا، والاقتصـــاد في الحواشـــي، والاكتفاء بشرح الغـــامض، وترجمـــة المجهـــول والمغمـــور، والتوســـع في الفهـــارس، باتباع أحدث أساليب الفهرسة، التي يجب أن تكون مفاتيح بيـــد القـــارئ، تيســـر لـــه سبل الاستفادة من الكتاب المحقق.

٤-إعادة بناء التراث: وهو الهدف الأسمى؛ الكبير والنهائي مـــن تحقيـــق التـــراث، ويمكن أن يجري على مراحل:

أولاً – وضع فهارس موضوعية شاملة، علـــى أحـــدث طـــرق الفهرســـة، الـــتي تقوم على إيجاد مكنز عربي موحد يتضمن رؤوس الموضـــوعات لكافـــة العلـــوم، مـــع تفريعاتها، وتطبيق هذه المكانز؛ على جميع كتب التراث.

ثانياً – بناء قاعدة معلومات تلم شتات التراث، على ضوء هـذه المكـانز، تقـدم المعلومات للباحثين موضحة مراجعها، ومظان وجودها.

ثالثاً – اختزال التراث، على شكل موسوعات في كـل موضـوع علـى حـدة، تقدم المعلومة معجمياً، بعـد غربلـة المعلومـات لاسـتخلاص أصـحها وأوثقهـا، وتخليصها من التكرار والخطأ والتناقض.

وهكذا يمكن أن نقدم للأجيال القادمة (عصـارة التـراث) في مجلـدات معـدودة، يتم فيها اعتصار مئات المجلدات، بعد تصفيتها من التكـرار، وتنقيتـها مـن التنـاقض، وحسم المشكلات المختلف فيها، والمعبر عنها بجملة: قيـل كـذا، وقيـل كـذا، والله أعلم، أو بعبارة: وفي المسألة قولان.

وكذلك تصحيح الأخطاء المتناقلة، والتي لم يكن مـن السـهل اكتشـافها لـولا الحواسيب ذات القدرة المذهلة على مقابلة المعلومـات، ووضـع الفهـارس الموسـعة التي تيسر الوصول إلى ما يتضمنه التراث من كنوز المعرفة.

الفصل السابع

مع الصحافة

حوارات لأجل واقع أفضل للكتاب

بين تقاليد النشر وتقاليد الصحافة علاقة وطيدة. فنمو كليهما وازدهاره يقترن بنمو المعرفة وازدهارها، لذلك من الطبيعي أن يأرق العاملون في كلا الحقلين لتراجع القراءة ونقص عدد القراء في المجتمع. ولعل مشكلة الصحافة لا تنحصر في ضعف إقبال الأفراد عليها فحسب.. بل إنها تتحول إلى صيغ أخرى خارجة عن تقاليد الصحافة الأصيلة عندما يكون الأفراد من النوع الذي يقرأ الصور ويتفرَّج على المقال.. تماماً مثل مشكلة القلة القليلة التي تقبل على الكتاب لتجعله مجرد زينة في المترل، ولذلك يكون حرصهم على انتقاء الغلاف الجميل والعنوان الطنان المسطر على كعب الكتاب بأحرف زاهية!! مما يجعل بعض الناشرين يهتمون بهذه الأمور الشكلية أكثر من اهتمامهم بمضمون الكتاب وموضوعه وطريقة تحريره!

لذلك فإن من الطبيعي أن يتعاون الناشر والصحفي من أجل ترسيخ طباع جديدة (وإن لم تكن جديدة في القديم) أهمها التعلق الواسع بالقراءة وإدراك أهمية الثقافة في بناء الفرد والمجتمع، وضرورة الارتقاء الفكري للأفراد في سبيل التحضر.

وفيما يلي حوارات متفرقة لعلها تدل على اهتمام الصحافة، ولكن وضع الصحافة بشكل عام ما زال دون شدة الأزمة المتفشية في الواقع. فعسى أن يكون للصحافة أيضاً سعيها المتنامي من أجل توثيق عرى الارتباط بين الفرد والكتاب، وتنقية طرق الاتصال من الحوافز واللصوصيات.

وضع الكتاب العربي

في سورية[1]

---

[1] جريدة (تشرين) – الاثنين ١٦/٥/١٩٩٤م – العدد ٥٩٣٧٠.

إيماناً منها بأن هذا العصر هو عصر المعلوماتيــة المتســارعة وأن الكتــاب الــذي يشكل العقل الكلي للمجتمع العربي في العصر الحــديث ســيبقى العنصــر الأساســي لرفد أي مركز معلوماتي افتتحــت (تشــرين) ملــف الكتــاب العــربي في ســورية بسلسلة من الحوارات والمقالات والتحقيقات الميدانية تشــمل كــل الجهــات المعنيــة بأمر الكتاب، (مؤسسات وأفــراد)، وســنحاول جاهــدين استقصــاء أي موضــوع يتعلق بصناعة الكتاب ونشره وتوزيعه وأرشفته.

ومن هذا المنطلق بدأنا حلقتنــا الثالثــة مــع دور النشــر الخاصــة في ســورية، وسوف نورد أجوبة الأستاذ محمد عدنان ســالم مــدير (دار الفكــر) علــى أســئلتنا التالية:

١- ما هي معاناتك كناشر سوري؟

الجواب: معاناتي الكبرى هي الأزمة التي يعانيها الكتاب، بصــورة عامــة، والــتي أنظر إليها من زاويتَي الحاضر والمســتقبل، فأراهــا بالنســبة إلى الحاضــر، تســتحكم أكثر، عزوفاً عن القراءة الجــادة، وإهمــالاً للتعريــف بالكتــاب، والنقــد للمؤلــف، والتشجيع للقارئ، وحثه على القراءة.. أما بالنســبة إلى المســتقبل، فينتــابني القلــق، من إمكانات الاختراق الثقافي، في مناخ الانفتــاح والتســوية، إذ إن أجهزتنــا لم تُعــدَّ نفسها حتى الآن لمواجهة الغزو الفكري، الذي تتأهــب لــه أجهــزة العــدو، والــتي تستهدف دفعنا إلى إنكار الذات، ونسيان الهوية والانتماء..

٢-لِمَ لا تميل دور النشر إلى طباعة الكتاب الجــاد غالبــاً؟ ومــا هــو ســبب تحول هذه الدور من إصدار الكتب الجادة إلى تســويق الكتــب التجاريــة؟ ومــتى بدأ هذا التحول؟

الجواب: لعل صيغة السؤال، تحمل في طياتها الإجابــة عنــه، فالهــدف التجــاري (البحت) هو الذي يدفع الناشر إلى إصدار الكتــاب التجــاري، الــذي يلقــى لــدى الجمهور رواجاً وإقبالاً.. والأمر في نظــري متشــعب، ينبغــي إضــاءته مــن عــدة جوانب: فهنالك أولاً: مسألة الهدف التجــاري، ثم مســألة ذوق الجمهــور، وأخــيراً مسألة الكتاب الجاد..

أما عن (الهدف التجاري) فإنه ربما يحلو للبعض أن ينظر إليه بالريبة، ويدعو إلى الترفع عن التعامل مع الثقافة في ظل هذا الهدف، بوصفها قضية عامة للأمة، يتوقف عليها مستقبلها، وقطاع النشر في نظر هؤلاء ينبغي أن تنهض به الدولة، ولا يجوز أن يترك للأفراد.. وهذه – في رأيي – نظرة سطحية لا تتوغل إلى عمق المشكلة.. فالهدف التجاري ضروري لمؤسسات النشر العامة والخاصة معاً. والنجاح التجاري لمؤسسة النشر سواء كانت عامة أم خاصة، هو نجاح للثقافة التي تمثلها، ولا يجوز لمؤسسة النشر أن تغطي إخفاقها التجاري بغطاء الثقافة. ودور النشر في العالم المتقدم، معظمها دور خاصة.. وقد أدت للثقافة خدمات جلى، دون أن تخسر تجارياً.

وأما (ذوق الجمهور) فهو مرتبط بالمرحلة الحضارية التي يجتازها، وجمهورنا – في وضعه الراهن، وفي غالبيته – ينشد السهولة، وما يتصل بحياته اليومية من شؤون مترلية واجتماعية وترفيهية، وسياسية، وهو يتأثر بالتوجيه، فيقبل على قراءة ما تُزَين له قراءته من كتب تراثية ومعرفية، فلا بد من تضافر جهود المعنيين بالثقافة لتنمية (عادة القراءة) لرفع مستوى (الوعي القرائي) لدى الجماهير.

وأما (الكتاب الجاد) فينبغي أولاً أن نحدد المقصود بجديته، فإذا كانت الجدية تعني التخصص، فإن الكتاب المتخصص إنما يوجه للمختصين، ولا تلزم الجماهير بقراءته إلا بمقدار ما يلامس حياتها، وعلى الناشر والقارئ المتخصص أن يتحملا عبء وتكاليف نشره.

وإن كان المقصود بالجدية، تناول المسائل الحياتية بشكل علمي فإن على الناشر والمؤلف كليهما، أن يرفقا بجماهير القراء، وأن يقدما لها المعارف بما يناسبها من تبسيط وتيسير وتشويق، فإن التعقيد والإغراب اللفظي والمصطلحي ليسا من العلم، وقد يشيان بغموض الأفكار عند المؤلف، وعجزه – بالتالي – عن تبسيطها وتوضيحها لجماهير القراء.

وهنا نأتي إلى (الناشر الجاد) الذي هو حجر الزاوية في مسألة (الكتاب الجاد) فالناشر الجاد، لا يهبط إلى مستوى طلبات الجماهير، بل هو يحمل بين همومه، تنمية (ذوق الجمهور) وتشويقه والارتفاع به إلى مستوى (الكتاب الجاد).

بقي الشق الأخير من السؤال: متى بدأ هذا التحول؟ وأرى أن تحديد زمن هذا التحول متعذر، لارتباطه بالمستوى الحضاري الذي تمر به أمة من الأمم. فإذا انحدر.. فإنه بانحداره يلف الجميع؛ القارئ، والمؤلف، والناشر على السواء.

٣-ما هي علاقتكم كناشرين بفهارس مكتبة الأسد الوطنية؟ بمعنى آخر؛ ما هي الخدمات التي يمكن أن تقدمها فهارس هذه المكتبة في تنظيم عملية النشر لديكم حتى تتجنبوا هذه الفوضى في الإصدارات؟

الجواب: سوف تكون هذه الفهارس مفيدة جداً عندما يكون للناشرين خطط مسبقة ومعلنة للنشر، وعندما يتم إعلام مكتبة الأسد عن هذه الخطط. أما في الوضع الراهن فلا خطط ولا فائدة.

بالنسبة إلى (دار الفكر) فقد دأبت على الإعلان عن خططها النشرية في مقدمة قوائمها السنوية.. وخطتها المعلنة تنفذ سنوياً بمعدل ٨٠% تقريباً، وربما أضيفت بعض العناوين الطارئة على الخطة. وطموحها المقبل، أن تعمد إلى جدولة خططها، بتوزيع خطتها السنوية على الفصول الأربعة، والإعلان عن خططها النشرية الطويلة الأمد.

٤-ما رأيكم بمعارض مكتبة الأسد؟ وهل لديكم اقتراحات لتطويرها؟

الجواب: معارض مكتبة الأسد تعد من أفضل معارض الكتاب العربية، تنظيماً وجمهوراً وجدوى ثقافية، وهي موسم ثقافي جدير بالاهتمام والتطوير.. وقد أعطتنا استبانة وزعتها (دار الفكر) في الدورة التاسعة لمعرض مكتبة الأسد، إحصاءات مفيدة جداً حول اهتمام الزوار، وعدد زياراتهم للمعرض، ونوع الكتب التي يهتمون بها من حيث الموضوعُ والشكلُ والأسعار، ومعلومات أخرى كثيرة وضعت في تصرف إدارة المعرض..

وأنا أتمنى على إدارة المعرض أن تضطلع بهذا العمل في دوراتها المقبلة، كما أرى أن نجاح أي معرض للكتاب، يقاس بعدد الزوار الجدد الذين يجتذبهم.. لأن ذلك سيكون مؤشراً يدل على تحقق هدف المعرض، وهو تنمية روح المطالعة والإقبال على الكتاب.

٥-ما السبب في عدم وجود برامج ثقافية خاصة تنظم مسيرة دور النشر السورية؟ ولماذا هذا الارتجال في إصداراتها؟

الجواب: ربما تجدون في الإجابات السابقة جواباً عن هذا السؤال، فالقصور في مؤسسات النشر عامة، وغياب التخطيط، والكلالة التي تتمثل بالركون إلى الثقافة السائدة؛ المعاصرة والتقليدية تكراراً واجتراراً، وفقدان روح الإبداع الذي يحفز إلى التجديد والابتكار والإضافة التي ينبغي للجيل الحاضر أن يغني بها ثقافة الأجيال السابقة.. كل ذلك سبب في انعدام البرامج الثقافية في حياتنا.. وحافز - في الوقت نفسه - لنا جميعاً ناشرين ومؤلفين وقراء، على تجاوزه.. وربما كان في اتحاد الناشرين السوريين، المزمع إنشاؤه قريباً ما يسد هذا الخلل.

٦-ما هي الجهات التي تقدمون لها منشوراتكم كإهداءات؟

الجواب: درجت الدار على تخصيص كمية كافية من إصداراتها الجديدة للإهداء. نظمت بها ما أسمته (بقوائم الإهداء الدائم) وهي تتضمن الإهداءات الرسمية للإيداع في المكتبة الوطنية، ووزارة الإعلام، وللدوريات المهتمة بالتعريف بالكتاب، وللمؤلفين كلٍّ في مجال تخصصه، وللمعنيين بشؤون الثقافة. كما تضع نسبة من المطبوع في تصرف (المؤلف)، لإهداءاته الخاصة.

٧-ما هو حجم الخدمات المتبادلة بينكم وبين المؤسسات الرسمية؛ اتحاد الكتاب، وزارة الإعلام، مجمع اللغة العربية؟ وما هي المساعدات التي يجب أن تقدمها لكم هذه المؤسسات؟

الجواب: لا أحس بأي قدر من التعاون بين دور النشر وبين هذه المؤسسات حالياً، فضلاً عن المساعدات. لقد قام نوع من التعاون المحمود - في صورة نشر مشترك - في عقد الستينيات بين دور النشر ووزارة الثقافة، انقطع بعد ذلك،

كما كانت بعض هذه المؤسسات تعمد إلى شراء عدد من النسخ من الإصدارات الجديدة بعد تقييمها من قبلها، تشجيعاً للثقافة، ثم توقفت عن ذلك، وفي الحالة الراهنة يقوم كل بالعمل على انفراد، ولا أعرف أي تعاون، أو جسور ممدودة، أو تواصل، أو تبادل للمعلومات والخبرات – في حدود معرفتي على الأقل – بين هذه المؤسسات الرسمية فيما بينها، وبينها وبين دور النشر الخاصة..

٨–ما هي مشاكلكم مع التوزيع أولاً؟والرقابة ثانياً؟

الجواب: أما التوزيع، فبوسعي أن أبادر إلى القول: إنه لم توجد في بلادنا – قطرياً ولا قومياً – مؤسسات للتوزيع، حتى الآن، وإن الناشر – أي ناشر – يقوم بتوزيع كتبه بوسائله الخاصة، القاصرة والضعيفة غالباً.

وأما الرقابة، فهنالك عامل (الوقت) والتأخير الذي لم تعد ظروف العصر المتسارعة تحتمله.. وتفادياً لذلك يفضل أي مؤلف أن يذهب بمؤلفه إلى أي بلد متحرر من قيود الرقابة على أن ينتظر ولو أسبوعاً، ليتلقى جواب الرقابة بالسماح له أو المنع..

وهنالك (المزاجية) التي تأتيك بالموافقة أو عدمها، دون إبداء الأسباب.

وقد تكون أجهزة الرقابة مضطرة إلى إجراءاتها في غياب (الناشر الملتزم) وفي غياب التنظيم المهني للناشرين. ومتى وجدا فأغلب ظني أن هذه الأجهزة ستكل الأمر إلى نوع من (الرقابة الذاتية) يمارسه المؤلفون والناشرون عن طريق تنظيماتهم المهنية وفق معايير وضوابط محددة.

٩–ما هو الدعم الذي يقدمه لكم اتحاد الناشرين العرب؟

الجواب: ما أظن أن ناشراً عربياً يحس بوجود (اتحاد للناشرين العرب)، كي يتواصل معه، و لم يظهر لهذا الاتحاد أثر في أي من المشكلات التي يواجهها الناشرون العرب، ولعل أبسطها مسألة التنسيق في مواعيد المعارض العربية، وكأني بهذا الاتحاد الرسمي للناشرين العرب، إنما هو اتحاد رسمي بين أعضائه الدائمين،

يرعى مصالحهم، ويستضيفهم في مؤتمرات وندوات تنظيرية، ويكتفي بنشر كتاباتهم الثابتة في مجلته (الناشر العربي)، التي توقفت عن الصدور[1].

١٠-كيف يمكن أن تتحدث عن تكاليف الطباعة والشحن والتوزيع وعلاقتها بسعر الكتاب ودخل القارئ داخل سورية؟

الجواب: يسود اعتقاد بأن سعر الكتاب العربي غالٍ. لا يتناسب مع دخل القارئ العربي، وأنا أشارك الداعين إلى تخفيض سعر الكتاب من خلال تخفيض تكاليفه، كي يصبح في مستوى دخل القارئ. وإن كانت لي على ذلك ملاحظات أوجزها فيما يلي:

أ-شعورنا بغلاء سعر الكتاب ناجم من نظرتنا الدونية له، فهو لا يرقى عندنا إلى مستوى الحاجة، بل إنه لينحدر إلى آخر سلم الكماليات، مما يسبب لنا العزوف عنه مهما أرخصنا من سعره.

ب-الكتاب في العالم المتقدم يباع بعشرات أضعاف سعر الكتاب العربي، ولا يشكو القارئ من غلائه، فالمسألة تخضع لقانون العرض والطلب؛ يرتفع سعر الكتاب حيث يشتد الطلب عليه، وينخفض حيث يكثر عرضه ويقل طلبه، بل يرافق الانخفاض شعور بالغبن والغلاء.

ج-تخفيض سعر الكتاب مرتبط بالكميات التي تطبع منه، فكلما زادت الكمية انخفض السعر، وهذا يقتضي توسيع رقعة القراءة وزيادة عدد القراء..

د-إن العمل على تخفيض سعر الكتاب، من خلال تخفيض تكلفته أمر مفيد، وهذا يتطلب منا دراسة مكونات التكلفة: فأما حق المؤلف فينبغي صونه تشجيعاً للإبداع. وأما تكاليف الطبع فإن تخفيضها يتطلب تخفيض الرسوم الجمركية على المواد الأولية اللازمة لصناعة الكتاب، وأما التوزيع والشحن فلا بد من العمل

---

[1] في مؤتمر عام للناشرين العرب، انعقد في بيروت على هامش معرض لبنان الأول للكتاب الذي أقيم في نيسان (أبريل) ١٩٩٤م، تم تكوين الاتحاد العام للناشرين العرب، الذي بدأ أعماله الميدانية بفعالية ملحوظة، مستمدة من دعم قاعدته العريضة من الناشرين.

على إقامة مؤسسات متخصصة بشحن الكتاب، وتخفيف الإجراءات الرسمية لشحنه، وتخفيض أجور الشحن، كي يستطيع أن ينطلق بحرية ويسر، خارج مكان إنتاجه المحلي، فالكتاب سفير ثقافي لبلده، ينبغي دعمه وتشجيعه.. ولقد حققت اللجنة التحضيرية لاتحاد الناشرين السوريين، بالتعاون مع الإدارات المختصة في القطر العربي السوري إنجازات كبيرة في هذا الصدد، فحصلت من وزارة الاقتصاد، على إعفاء للكتاب من تعهد بإعادة قطع التصدير، كما حصلت من وزارة النقل على تخفيض إضافي قدره ٤٠% على السعر الصافي لأجور شحن الكتاب على الخطوط الجوية السورية، وكان لتجاوب السيدين وزيري الاقتصاد والنقل الأثر الكبير في إصدار قراريهما دعماً للكتاب، ولا يزال أمام اللجنة الكثير من المشكلات التي تعالجها مع الأجهزة المختصة.

١١-ما السبب برأيك في عدم حصول أغلب المؤلفين على حقوقهم من الناشرين؟

الجواب: إن في طرح السؤال على هذا النحو شيء من الخطأ في نظري، فهو يظهر نوعاً من الصراع بين المؤلفين والناشرين، وكأن مصالح الفئتين متناقضة ومتعارضة. في حين أنني أعتقد أنهم جميعاً في خندق واحد، ويجب أن يكونوا صفاً واحداً في وجه الجهل والأُمية والعزوف عن القراءة. إن في الفئتين كلتيهما (مسيء ومحسن) ومن الخطأ تعميم الأحكام عليهما، غير أن حق المؤلف يجب صونه ورعايته قانونياً، بإصدار التشريع الخاص بحماية حقوق المؤلف، وبالتوقيع على الاتفاقيات الدولية الخاصة بهذا الشأن، وإدارياً بإنشاء مجلس لحماية حقوق المؤلف تدون وتوثق فيه عقود النشر، ومسلكياً بالتعاون بين التنظيمات المهنية المختصة بصناعة الكتاب، ورصّ صفوفها في مواجهة قراصنة الفكر وقراصنة النشر.

وأخيراً فإن هموم النشر كثيرة ومتشعبة لا تكفي لها هـذه العجالـة. وأنـا بصـدد إعداد كتاب بعنوان (هموم ناشر عربي)[1].

آمل أن يكون بين أيدي القراء قريباً. ضمنته بعض هذه الهمـوم متمنيـاً أن يـدلي كل مهتم بشؤون الثقافة بدلوه إسهاماً في حـل أزمـة (الكتـاب) وأزمـة (القـراءة) التي سبق أن أصدرت فيها كتابي (القراءة أولاً).

١٢-لماذا لا تؤسسون اتحاداً للناشرين؟

الجواب: إثر الاجتماع الذي انعقـد في مقـر اتحـاد الكتـاب العـرب بتـاريخ ١٩٩٣/١/٢٥ م، بدعوة من الأستاذ علي عقلة عرسـان، تم انتخـاب لجنـة لمتابعـة أمور الناشرين، وفي مقدمتها إيجاد كيان قانوني لهم.

ومنذ ذلك التاريخ عقدت اللجنـة عـدة اجتماعـات، وأعـدت ورقـة عمـل تتضمن المطالب العاجلة للناشرين والمتعلقة بمختلـف الـوزارات والـدوائر المختصـة وصاغتها في رسالة موجهة للسيد رئيس مجلـس الـوزراء، وقامـت بعـدة مقـابلات للسادة الوزراء المعنيين، وحصلت في كل مقابلاتها على وعـود مشـجعة لحـل أزمـة الكتاب، وما تزال تواصل مساعيها لتنفيذ كل الوعود.

وإنه لمن دواعي السرور أن تكـون أولى الثمـار صـدور قـرار السـيد وزيـر الاقتصاد والتجارة الخارجية بتـاريخ ١٩٩٣/٦/٢م، والـذي تم تعميمـه مـن قبـل مدير الجمارك العام بتـاريخ ١٩٩٣/٦/٥م وذلـك بإعفـاء الناشـرين مـن تنظـيم التعهد بإعادة قطع التصدير، ومن تقديم مسـتندات اسـتيراد الكتـب إلى المصـارف المأذونة في القطر، والاكتفـاء بحصـولهم علـى موافقـة الجهـات الرقابيـة في وزارة الإعلام.

هموم الكتاب العربي ودور النشر العربية[2]

في حوار مع مدير (دار الفكر)

---

[1] صدر في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٩٤ م عن دار الفكر في دمشق.

[2] مجلة دنيا المجتمع: العدد ١٤/٨١، السنة الثانية عشرة، ١٥ نيسان – ٤ أيار ١٩٩٤م.

س١: على أي أساس تقوِّم دار الفكر النتاجات المعدة للنشر ومؤلفيها؟

الجواب: للدار خطتها المدروسة لتنمية منشوراتها، بشكل يلبي الحاجات الثقافية للأمة العربية، ويراعي متطلبات التطور العلمي، ويحقق التوازن بين مختلف فروع المعرفة، وهي لذلك تتعاون مع سائر المؤلفين الذين يكون لديهم ما يخدم هذه الخطة. وتُخضع كل ما يقدم إليها من المؤلفات إلى تقويم علمي وثقافي، يوضح للإدارة جدوى المؤلَّف الثقافية، ومدى انسجام موضوعه مع خطتها، فضلاً عن مستواه الإبداعي الذي يجعل منه خطوة علمية متقدمة، ولا تقبل إلا ما تجده منسجماً مع خطتها ويلبي حاجة علمية، ويقدم إضافة جديدة إلى الحصيلة المعرفية.

طبيعي أن للدار أسرتها من مشاهير المؤلفين الذين يساعدونها في تنفيذ خطتها، لكنها ترحب في الوقت نفسه بالمواهب الشابة، وتتلقف أبحاثها المبدعة، كما أن لدى الدار أجهزتها المتخصصة التي تعكف على إعداد الدراسات الموسوعية والمعجمية وتحقيق التراث النافع، وهذه الأجهزة العاملة في الدار تضم نخبة من المواهب الشابة، تعمل تحت إشراف أساتذة وعلماء قديرين.

س٢: حبذا لو تعطوننا فكرة عن الصعوبات التي تواجهكم في مجال التسويق؟

الجواب: لا تستطيع أية دار للنشر أن تستمر في عطائها، وفي جهودها الثقافية التي تهدف إلى تغذية الفكر وتنمية المعارف، ما لم يواكب نشاطها الإنتاجي، تسويق يتلقف إنتاجها، ويشجعها على العطاء.

ويجب أن نعترف أن الكتاب الجاد، يعاني أزمة خانقة، وأن الناشر الجاد والملتزم بتقديم ثقافة حية واعية لأمته، يواجه صعوبات كثيرة، وأن المال الذي يستثمر في هذا المجال يعد من أبطأ الرساميل دوراناً، وبالتالي فهو يعد من أفشل المشاريع استثماراً.

وأهم الصعوبات التي يواجهها الناشر الملتزم، العزوف عن القراءة، وضيق الساحة الثقافية التي تهتم بالكتاب، والقيود المفروضة على حركة الكتاب بين

الأقطار العربية، وضعف الجهود المبذولة من أجل التعريف بالكتاب، ومن أجل تكوين عادة القراءة لدى الجماهير وخاصة الأطفال.

إن الناشر العربي لا يحمل همّ تقديم الثقافة الجادة فحسب، بل يحمل همّاً أكبر، هو إشاعة روح المطالعة، وتكوين الرغبة بالقراءة، وإيجاد السوق الجديرة بتلقف إنتاجه الثقافي.

وما لم تتضافر جهود المعنيين من أجل توفير المناخ الثقافي الملائم، وتكوين عادة القراءة لدى الجماهير، فإن مستقبل الثقافة سيظل يواجه خطر التخلف، والعجز عن مواكبة ركب الحضارة.

س٣: كيف تنظرون إلى قراصنة العمل الفكري؟ وما هي برأيكم الوسائل الكفيلة بردعهم؟

الجواب: إن قرصنة النشر، وسرقة جهود المبدعين، واستباحة حقوق التأليف، التي تتجلى في ظاهرة تزوير الكتب، لهي من أهم المشكلات التي يواجهها الناشر الجاد، وهي تشكل اعتداء صارخاً، ليس على حقوق المؤلف والناشر فحسب، بل على مستقبل الثقافة أولاً، إذ كيف يمكن لمبدع أن يستمر في عطائه، وكيف يمكن لناشر أن يستمر في بذل جهوده إذا كان (المزور) يقف لهما بالمرصاد، لسرقة جهودهما، واستباحة حقوقهما؟

ومن الطريف أن قرصان النشر – الذي يحترف تزوير الكتب، جرياً وراء تحقيق ربح مادي سريع، تدره سرقة جهود الآخرين – كثيراً ما يرتدي جبة الوعظ، ويقف مدعياً أنه إنما يقترف جريمة اللصوصية في سبيل نشر العلم، ومن أجل توفير الكتاب لطلابه بسعر رخيص.

أي فرق بين سارق ثمرات الفكر الإنساني، التي بذل المؤلف والناشر في إنتاجها جهودهما المضنية، وبين سارق المجوهرات أو الأثاث، التي اختلسها من أصحابها وراح يعرضها في الأسواق؟ هل يعفيه من المسؤولية أن يبيعها بسعر رخيص؟ وهل ينقلب المال الحرام الذي يأخذه نظير سرقته إلى مال حلال إذا أرخص في الثمن؟

ألا يعد من يشتري المال المسروق شريكاً للسارق، معيناً له على اقتراف جريمته؟ إن السطو على جهود المبدعين، وثمرات أفكارهم، ونتاج سهرهم ومعاناتهم، لهو أشد خطراً من السطو على البيوت والمتاجر، ذلك أنه يهدد مستقبل ثقافة الأمة.

فلن يسهر مبدع، ويبذل نفسه وراحته بعد اليوم إذا شعر أن ثمرات جهوده مستباحة.

أما الناشر الذي يجازف بجهده وتفكيره وماله في نشر عشرات العناوين، التي تظل حبيسة مخازنه زمناً طويلاً لا تلقى رواجاً، حتى إذا نجح عنوان منها وأقبل عليه القراء، سرقه (المزور) المتربص، ليحرمه من تعويض ما أنفق وما خسر، فما أظن أنه سيظل قادراً على الاستمرار في مجازفته.

وما أظن ناشراً سوف يقدم على التخطيط والسهر والإنفاق على المشاريع الثقافية الواسعة، والأعمال الموسوعية الكبيرة، إذا كانت مهددة بالاغتصاب والسرقة.

إن عملاً واحداً من أعمال تحقيق التراث، ربما يكلف الناشر أن يحشد له عشرات المحققين والباحثين، يعملون فيه دائبين بضع سنين، وينفق عليه الملايين، حتى إذا رأى النور سطا عليه المزور متحرراً من كل الأعباء المالية والجهود المضنية، والصبر الطويل، ليقدمه للناس، مدعياً حرصه على الثقافة.

إن الناشر سوف يفكر ألف مرة قبل أن يخطط لمثل هذه الأعمال الكبيرة، ولن يقدم عليها، ما لم تقدم له الضمانات الكافية، وما لم يتوافر له المناخ الثقافي الملائم في مجتمع يحترم الفكر والإبداع، ويحفظ الحقوق لأصحابها، ويضرب على يد اللصوص، ويعاقب القراصنة الذين يسرقون جهود الآخرين.

هذا الاحترام للإبداع ينبغي أن يشارك في حمله كل فرد من أفراد مجتمع ينشد التقدم، يستوي في ذلك القارئ والمؤلف والناشر وأندية الثقافة والقضاء، وأن يتضامنوا جميعاً لطمأنة المفكرين والمبدعين على حقوقهم، وإقامة السد المنيع الذي يتعذر اختراقه أو الاعتداء عليه.

س٤: لقد فقد القارئ العربي عادة القراءة أو يكاد، فما هي برأيكم سبل حل هذه المعضلة؟

الجواب: العزوف عن القراءة، هو المشكلة الكبرى التي تهدد الثقافة، وتبذل المجتمعات المتقدمة جهوداً مضنية من أجل المحافظة على عادة القراءة بين أفرادها، ويستطيع أي زائر لهذه المجتمعات أن يلاحظ شغف الناس بالقراءة، واستغلالهم كل فرصة سانحة لهذا الغرض، وخاصة أوقات الانتظار، التي يقضيها الإنسان في وسائط النقل، وقطارات الأنفاق، وعيادات الأطباء، وغير ذلك، ويؤرق هذه المجتمعات كثيراً أية ظاهرة تنم عن التباطؤ في القراءة أو الإعراض عنها.

ففي العام الماضي شعر الفرنسيون بانخفاض في نسبة القراءة فتنادوا إلى مهرجان أسموه (جنون المطالعة)، نزل فيه وزير الثقافة ومعه كبار المؤلفين الفرنسيين إلى الشوارع والساحات العامة والمراكز الثقافية، يجمعون الناس من حولهم ويقرؤون لهم.

فالقراءة.. أولاً، والقراءة هي سر النهضة، ومفتاح الحضارة، وطريق التقدم والرقي، لا تقوم حضارة بدونها، هكذا علمنا (القرآن) حين أيقظنا من سباتنا، وحملنا رسالة الحضارة إلى البشرية، فكانت كلمته الأولى في آخر رسالة بين السماء والأرض، نزل بها الوحي الأمين على قلب محمد (ص): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (*) خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (*) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٩٦/١-٣].

ثقافة الاتجاه الواحد

تؤدي بها إلى الفناء[١]

تواصل (البيان) حواراتها مع المشاركين والمدعوين في معرض الكتاب بالشارقة.. ومحمد عدنان سالم، رئيس اتحاد الناشرين السوريين، ونائب رئيس اتحاد الناشرين العرب، الذي كان ضمن المدعوين في الدورة الرابعة عشرة

---

[١] البيان: العدد ٥٦٢٥، الأحد ١٩٩٥/١١/١٢م.

للكتاب بالشارقة، والتي تنتهي مساء اليوم، يرى أن القراءة هي معيار تقدم الأمم، ويدعو إلى خلق مجتمع قارئ، يدخل فيه المواطن العربي إلى حديقة الفكر ليقتطف منها أحلى ثمراتها، حتى لو دميت يداه بشيء من أشواكها.. ومعه يستمر الحوار.

س١: أين نحن من القراءة؟

الجواب: نحن نعاني حالة عزوف عن القراءة، هذا العزوف يمكن أن يتبدى في كمية المنشورات التي تصدر عن دور النشر، وهي لا تتجاوز الآلاف المحدودة جداً مقابل المئة وخمسين مليون عربي.

والإنسان في تحليله لهذه الظاهر يجد أن هنالك كثيراً من الغرابيل التي تُسقط هذا العدد الضخم من الناس في هاوية العزوف عن القراءة، فهناك أولاً مشكلة الأُمية التي تبلغ نسبة عالية في العالم العربي، وهنالك المشكلة الأخطر وهي الأُمية اللاحقة متجسدة في عزوف المتعلمين عن القراءة بعد مغادرتهم مقاعد الدراسة.

ومعلوم أن القراءة هي مفتاح الحضارة، ومعيار تقدم الأمم، ولا يمكن أن تقوم حضارة بدون قراءة، هذا ما يتضح من السطر الأول في التنزيل الإلهي، فعندما أراد الله لهذه الأمة أن تنهض خاطبها بكلمة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١/٩٦]، ولا يمكن أن يكون هنالك شعب متحضر بدون قراءة، فالقراءة معيار للتحضر، وقد باتت الأمم تقاس بمدى ما تملكه من ثروة في المعلومات لا بما تملكه من ثروة المال أو عدة السلاح.

ونظراً لأن القراءة هي معيار تقدم الأمم، فإن الأمم المتحضرة ترصد حركة القراءة، وتسعد بارتفاع مؤشرها في المجتمع، ويقلقها كثيراً أن ينخفض هذا المؤشر، وعندما تحس بأي انخفاض في مؤشر القراءة تتحرك بكل طاقاتها لترميم هذه الفجوة، فنحن علينا أن نهتم بخلق مجتمع قارئ، وبتلافي كل الصعوبات التي تحول بين الإنسان والقراءة، وعند هذا الهدف تلتقي جهود الناشرين ومنظمي المعارض معاً.

وكما تعلم فإن الهدف الرئيسي للمعارض هو تيسير الكتاب للقارئ، ويقاس نجاح المعرض في مدى اجتذابه لقراء جدد إلى عالم القراءة.

وهناك معوقات كثيرة تعانيها صناعة النشر إلى جانب العزوف العام عن القراءة، وهذه المعوقات تتمثل في القيود التي تعترض حركة الكتاب في العالم العربي، فبالرغم من ضيق الرقعة الثقافية التي سيتحرك عليها الكتاب العربي، نجد أن تعارض الرقابات يشكل عقبة أساسية، فما يسمح به هنا يمنع هناك، ونحن نطمح إلى أن تضبط الرقابة بمعايير واضحة، ترتفع فوق المزاجية والعشوائية، وإذا استطعنا أن نصل إلى هذه المعايير الواضحة على النطاق المحلي بالتعاون بين الأجهزة المعنية بالثقافة وبين اتحادات النشر المحلية، فإن طموحنا الأكبر هو أن نصل إلى معايير عربية شاملة، بحيث إذا سُمح الكتاب في بلد عربي، فإن هذا السماح يكون جواز المرور له إلى كل البلدان العربية، وهذا ما ينتظر أن يتحقق على المستوى القومي للأمة العربية.

هنالك أيضاً الرسوم المالية التي تفرض على الكتاب سواء كانت جمركية أم بأي اسم آخر، فإنها أيضاً تقيد حركة الكتاب، فالكتاب العربي لا يمكن أن يكون محلياً، لا يمكن إلا أن يكون عربياً، ولا يجوز أن يُحَمَّل بأي عبء جديد عند انتقاله من بلد عربي إلى بلد عربي آخر.

وهنالك مشكلة خطيرة يعانيها الناشر؛ وهي مشكلة الاعتداء على حقوق المؤلف، فهنالك تجار يتصيدون الكتاب الرائج فيصورونه ويطبعونه بمعزل عن الناشر والمؤلف ولا يؤدون حقوقهما، وهذا مما يشكل خطراً كبيراً على مستقبل الإبداع، ويثبط حركة التأليف، عندما يحرم المبدع من مؤلف وناشر من استثمار حقهما في هذا الإبداع.

إن الاتحاد العام للناشرين العرب يقوم الآن بجهد مشترك من أجل حماية هذه الحقوق ومكافحة قرصنة النشر في العالم العربي، وقد شكلت اللجنة العربية لحماية الملكية الفكرية لهذا الغرض.

س٢: كثير من الناس يعلل عزوفه عن القراءة بأن وسائل الإعلام الحديثة امتصت وقته ولم تترك له وقتاً للقراءة.. ما رأيك؟

الجواب: أنا لا أعتقد أن وسائل الإعلام ستكون منافسة للقراءة والكتاب، إذا قامت بواجبها في التعريف بالكتاب، وعقد ندوات لمناقشته وزيادة حركة النقد وحث الناس على القراءة.

س٣: ما معايير الكتاب الجيد؟ هل هناك معايير ثابتة في رأيك؟ أم أن المسألة ليست خاضعة للتصنيف؟

الجواب: هذا السؤال يلفتنا إلى ما يدعى الآن بحركة التنوير، وكأني بالتنوير هنا يهتم بالتعرف إلى مادة الكتب، بحيث تصنف الكتب إلى كتب تنويرية وأخرى غير تنويرية، وهذا التصنيف في نظري خاطئ لأن التنوير إنما يرتبط بالمنهج أكثر من ارتباطه بالمادة، فهو يرتبط بمنهجية التفكير سواء كانت عند المؤلف أو القارئ على السواء؛ فالقارئ عندما يقرأ بعقل منفتح، وبصر ناقد، ويدخل في قراءته دون مسلمات سابقة، ويحاكم ما يقرؤه بعقله، فإن كل ما يقرؤه سيكون تنويرياً سواء أكان الكتاب قديماً أم حديثاً، تراثياً أم معاصراً.

س٤: هل من حق القارئ أن يقرأ كل ما يكتب، البعض يصادر فكر القارئ ويخضعه لنوع من الإرهاب الفكري؟

الجواب: أنا شخصياً مع حرية القراءة، أرفض كل وصاية على الأفكار، وكل أنواع الحجر الفكري مهما كان مصدرها سواء كانت آبائية أم سياسية أم دينية أم اجتماعية؛ لأنني أثق بوعي القارئ، وأثق بالعقل الذي منحه الله للإنسان، وجعله مسؤولاً عن استخدامه، ونهاه أن يتبع ما ليس له به علم، ولا أرى أي مسوغ لحرمان القارئ من قراءة أي شيء أو أي كتاب، وإن هذا الحرمان يمثل شيئاً من عدم الثقة بالقارئ، وأنا أريد أن أسأل: هل الرقيب أكثر وعياً من القارئ؟ لماذا لا ندع القارئ يصل إلى الحقيقة من خلال التعدد، من خلال فهمه الرأي والرأي الآخر، ذلك أنني أعتقد أن ثقافة الاتجاه الواحد التي يمليها علينا الرقيب لا تؤدي بالثقافة إلا إلى الفناء، ولا يمكن للثقافة والمعرفة أن تنمو إلا بتصادم الأفكار وتعددها، أنا أدعو إلى حرية الفكر، وحرية التعبير والقراءة، وأن يدخل المواطن العربي إلى حديقة الفكر ليتسنى له أن يقتطف بنفسه أحلى ثمراتها،

حتى لو دميت يداه بشيء من أشواكها، وأنا أعتقد أن القراءة تصحح أخطاءها. قد يقع القارئ تحت تأثير أفكار خاطئة جراء غفلته عند قراءتها، ولن يصحح خطأه هذا إلا مزيد من القراءة.

س٥: سؤالي عن ارتباط ظاهرة القراءة بجيل معين أكثر من غيره نتيجة لتغير الظروف.. ما رأيك؟

الجواب: حركة الثقافة حركة متواصلة لا تقف عند جيل من الأجيال، وإن هي وقفت فإنما يعني ذلك عجز الجيل الجديد عن الإبداع، فالثقافة حصيلة تراكم المعارف عن الأجيال السابقة، يسهم كل جيل من أجيال البشرية في بناء لبنة منها، والجيل الذي لا يضيف إلى ثقافة الآباء لبنات جديدة فإنما هو جيل عاطل تنقصه الفعالية، ويمكن للتاريخ أن يتجاوزه دون أن يلقي له بالاً، بمعنى آخر أنا أنظر إلى الثقافة على أنها إبداع، وتوقف أي جيل عن العطاء يعني كلالة هذا الجيل وعجزه.

س٦: كيف ترى العلاقة بين المؤلف والناشر؟

الجواب: كثيراً ما يشار إلى هذه العلاقة على أنها علاقة جدلية، وكثيراً ما تثار المسألة على أنها استغلال من الناشر للمؤلف. وحقيقة الأمر أن المؤلف والناشر كليهما في عالمنا العربي، موجودان في خندق واحد في مواجهة العزوف عن القراءة الذي يوازي عندي التخلف.

إن المؤلف في المجتمعات المتقدمة يستطيع أن يعيش من دخل مؤلفاته عيشاً كريماً، لأن العدد الذي يطبع من كتبه عدد كبير بحجم عدد القراء في هذه المجتمعات، بينما لا يستطيع مؤلف في عالمنا العربي أن يعيش من دخل مؤلفاته، بسبب العزوف القرائي، والقيود المفروضة على الكتاب، لذلك فإن على المؤلف والناشر أن يتعاونا جميعاً مع الجهات المعنية بشؤون الثقافة لخلق مجتمع قارئ والذي يبقى هو الطموح الكبير.

س٧: بصفتك ناشراً بارزاً.. كيف تقوم الكتب المعروضة للأطفال؟

الجواب: ثقافة الطفل، أنظر إليها على أنها حجر الأساس والمنطلق لتكوين مجتمع قارئ، لا يمكن أن يبدأ المجتمع القارئ إلا بتكوين طفل قارئ، الكتاب عندنا لم يبلغ حتى الآن مرتبة الكماليات فضلاً عن مرتبة الحاجات، ولا يمكن أن يبلغ هذه المرتبة إلا إذا علمنا أطفالنا كيف ينظرون إلى الكتاب، أتمنى كثيراً أن تتحول طلبات الطفل واهتماماته إلى جانب الألعاب والمأكولات والحلويات التي تضر بصحته، أن يكون اهتمامه بالكتاب مكافئاً لهذه الاهتمامات إن لم يكن أكثر منها.

الطفل في البلدان المتقدمة يلحّ على أبويه بطلبات للكتب وللقصص، إنه محب للقصة ولوع بها، وما لم نُنَمِّ عنده هذا الواقع، فإنه سيكف عنه. من أجل ذلك ينبغي أن نعنى بكتاب الطفل؛ كتاب الطفل حتى الآن لا يجد عندنا المؤلف المتخصص ولا الناشر المتخصص الذي يقدم للطفل ما يغريه بالكتاب ويعرف توجهات الأطفال واهتماماتهم وحاجاتهم النفسية والاجتماعية.

أزمة الكتاب العربي[1]

أجرى مندوب جريدة الحياة مع الأستاذ محمد عدنان سالم الحوار التالي:

س١: أزمة الكتاب موضوع متشعب يطرح كمشكلة أساسية داخل الثقافة العربية، كيف تنظرون إلى هذه الأزمة؟

الجواب: سؤالك هذا يثير في جوفه العديد من التساؤلات:

هل الكتاب في أزمة؟ هل كان الكتاب مزدهراً معافى ثم وقع في أزمة وتراجَع؟ إذن ما هذا السيل الجارف من المطبوعات؛ من الكتب والصحف والمجلات؟ ولِمَ تقوم كل هذه المؤسسات الطباعية مزوَّدة بأحدث الآلات، وأسرعها إنتاجاً؟ ولِمَ يتزايد عدد دور النشر في العالم العربي، وتتعدد أسماؤها، حتى تتشابه حيناً، وتبعد أحياناً عن مدلولات التخصص؟ ومن يدري؟ فلربما تلوذ بالأرقام في عالم الأرقام، كي تتخلص من ورطة الأسماء؟

---

[1] حوار مع مندوب جريدة الحياة أجري يوم ١٩٩٦/١/٢٧م.

وإذا سلمنا أن الكتاب في أزمة، فهل هي موضوع متشعب حقاً؟ وهل هذا الموضوع مطروح فعلاً كمشكلة أساسية داخل الثقافة العربية؟

أود أن أسارع إلى الإجابة، على الطريقة المختزلة، بنعم أو لا، حتى لا أشوش القارئ، فأنا ممن يكرهون الدهاليز والمقدمات.

أما أن الكتاب في أزمة فنعم.

وأما أن أزمته متشعبة، وأنها باتت مطروحة على ساحة الشعور الثقافي العربي فلا. ولندخل معاً إلى شيء من التفصيل:

فأنا أنتمي إلى جيل أفاق على طبول الفكر النهضوي في أواسط القرن الذي يوشك أن ينصرم، لم يكن مُغْرِقاً بالكثير من المجلات والصحف والمطبوعات، لكنه كان مفعماً بحب القراءة، مولعاً بمتابعة المعارك الفكرية والأدبية المشتعلة بين المفكرين والأدباء والنقاد على الساحة العربية، يتلقف الكتاب بنهم، ويقدس الحرف والكلمة، ويوفر لها من قوته وحاجته، بل رفاهيته وكمالياته، لكي يدلي بدلوه في خضم الحركة الفكرية والأدبية، في مجتمع كان يمور بالحركة، ويبتلع كل ما يصل إليه من أوعية الكلمة، يصطف لها على أبواب مكتبات التوزيع بالطوابير، ثم يتعاورها؛ إعارة وتهادياً، ويتداولها مناقشات ومساجلات، تملأ عليه حياته اليومية، وتشغل ندواته وأسماره، يستوي في ذلك العالم والطالب والتاجر والموظف.. لم يكن يحفل بالشكل، كما كان يهتم بالموضوع، مما دفع بالكتاب الشعبي، مثل سلسلة (اقرأ) التي كانت تصدرُ عن دار المعارف، و (كتاب الهلال)، ومن بعد (كتاب الشعب) إلى قمة الرواج... إذا بهذا الجيل، في نهاية القرن، يجد نفسه في وضع مختلف؛ صحف ومجلات وكتب تغمر الأسواق، تعرض نفسها مطبوعة على أفضل أنواع الورق، مزدانة بأبهى الألوان، متذرعة بكل إغراءات التصميم والمساحيق والتلميع بالسلوفان، كي تجتذب القارئ، ولا من مستجيب.. لقد تحولت الطوابير من محلات تغذية العقول إلى محلات تغذية البطون، ولم يعد للحرف تلك القداسة، ولا للكلمة تلك الحفاوة، وانصرفت أحاديث الناس في منتدياتهم وأسمارهم إلى آخر (التقليعات) وأحدث المبتكرات في

عالم الإلكترونيات، وأوكل بصنعها قوماً آخرين، وعهـد إلينـا بالاسـتهلاك الشـرهِ، ودفعِ الفواتير الباهظة؛ ذلاًّ ومهانة وخزياً وتبديداً لثرواتنا وثـروات أبنائنـا والأجيـال القادمة، وإنما فعل الله ذلك بنـا جـزاءً لغفلتنـا، واسـترخائنا، وجمودنـا، وتخلفنـا، وغيابنا عن العالم، ونومنا على وقع بيت الحطيئة يهدهد أسماعنا:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

ثم أكد لنا أن المشكلة في أعماقنا: ﴿قُلْ هُوَ مِـنْ عِنْـدِ أَنْفُسِـكُمْ﴾ [آل عمـران: ١٦٥/٣]، وأنه لن يغير حالنا حتى نغير ما بأنفسـنا مـن أفكـار باليـة ﴿إِنَّ اللَّـهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١/١٣].

أُراني قد ابتعدت عن أزمة الكتاب، فما الذي قلص عـدد النسـخ الـتي يطبعهـا الناشر من ثلاثة آلاف كحد أدنى كان يطبعه في السـتينيات، إلى ألـفٍ واحـد بـات يطبعه في التسعينيات؟ وما الذي صرف النـاس عـن النـهم إلى القـراءة والاسـتزادة من المعرفة؟

أهو اقتصاد السوق وقانون العرض والطلب، إذ كثر عـرض المجـلات والعنـاوين المطروحة من الكتب فخف الطلب عليها وزهد الناس بها؟

أم هو البديل من غزارة التدفقات الإعلامية، عبر كـل وسـائل الاتصـال، الـتي غزتهم في عقر دارهم، وأوشك أن تدخل في جيـوبهم، فـلا تتـرك لهـم أي وقـت للقراءة؟

أم هو غلاء الأسعار، وارتفاع سعر الكتاب، وعجـز صـاحب الـدخل المحـدود عن شرائه؟

أم هو عقم الأفكار؟ وضعف الإبـداع، وعجـز المؤلـف عـن تقـديم الجديـد، وابتكار المفيد، وكثرة التكرار والاجترار، مما يثير لدى القارئ الملل والتقزز؟

أم هو غياب النقدِ والحوارِ وتعددِ الرؤى وتدافعِ الأفكار، وفـرضُ ثقافـة الـرأي الواحد، وحرمانُ القارئ من حقه في الاطلاع، وإحكـام الوصـاية عليـه، وتشـديد الرقابة وأنظمة الحجر الفكري دون أية ضوابط أو معايير؟

أم هو تزايد مطالب الحياة، وتعقد سبل العيش، وتعدد الاحتياجات، وضغطها على حاجة الإنسان للقراءة، وتخفيض مخصصاتها؟

بعض هذه الأسباب ذرائع يتشبث بها بعض الناس لتسويغ عزوفهم القرائي، وبعضها أوهام نستخدمها للتهوين من حجم الأزمة، وبعضها أسباب حقيقية تكمن وراء حالة الاسترخاء الثقافي الخطير التي هي السبب الجوهري في أزمة الكتاب.

وأستطيع أن أخلص من ذلك إلى القول:

إن أزمة الكتاب حقيقةٌ، وإن موضوعها الرئيسي هو العزوف عن القراءة، وإن أقل بوادر هذا العزوف يبعث على القلق في مجتمع متحضر، فيستنفر لتلافيها كل طاقاته التربوية والإعلامية، أما في مجتمعاتنا فلا شيء يبعث على القلق.

س٢: تختلف طبيعة ووظيفة الناشر في العالم العربي عن مثيلاتها في العالم، ما هو برأيكم شكل وأسباب هذا الاختلاف؟

الجواب: يفرض التخلف على الناشر العربي أعباءً، ويضع في طريقه معوقات، لا يشعر بها نظيره في المجتمعات المتحضرة، وذلك نتيجة الاختلاف في المناخ الثقافي الذي يعمل في ظله كل منهما.. المسألة في نظري مسألة تحضر.

ففي مجتمع متحضر، يعمل الناشر في مناخ ثقافي يقدس حرية التعبير، ويرفض قيود الوصاية، وأنظمة الحجر والرقابة، في حين يلهث الناشر العربي تحت وطأة رقابات متشددة متباينة، وعشوائية مزاجية، يكاد لا يفلت من واحدة حتى تواجهه قرارات المنع عند أخرى، دون إبداء الأسباب، فهو لا يعرف لماذا سمح السامح، ولا لماذا منع المانع؟ ولا كيف يسلك طريقه وسط رقابات متباينة.

وفي مجتمع متحضر، يحترم الناسُ حقوق التأليف والابتكار، مما يساعد على نمو الإبداع، دون أي خوف من اعتداءٍ يحرمُ المبدع مؤلفاً أو ناشراً من استثمار إبداعه، ويستطيع المؤلف فيه أن يعيش حياة كريمة من دخل إبداعه، بينما يعمل الناشر العربي في ظل ثقافة تستبيح الاعتداء على حق المؤلف، بل وتنتحل له الأعذار والمسوغات من دينية واقتصادية وعلمية، فتغيب التشريعات الخاصة

بحماية حقوق المؤلف، وتعطل – إن وجـدت – وتمتنع الحكومات عن التوقيع على الاتفاقيات الدولية المتعلقة بهذه الحقوق، وتنتشر قرصنة النشر، ويحرم المبدع من استثمار جهوده، فيذبح الإبداع على قارعة الطريق، ويقف الناشر حائراً بكتابه الذي شقي بإنتاجه، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب؟!

وفي مجتمع متحضر، يسوده الإبداع الفكري، والنهم القرائي، ويمور بالحركة والنقد، تنمو لصناعة النشر تقاليدها الراسخة، وضوابطها العريقة، ويتعلم الناشرون في ظل هذا المناخ الثقافي كيف يتعاونون وكيف يتنافسون لإنتاج الأفضل.

وفي عالمنا العربي، لا يجد الناشر من يأخذ بيده ولا من يأخذ على يده، فلا ضوابط ولا تقاليد، بل كلٌّ يعمل على شاكلته، ومن يدري أي نوع من الثقافة يمكن أن يصدر في هذا الجو الثقافي الغائم؟!

س٣: هناك أطراف متعددة في عملية (صنع) الكتاب.. هل تنظرون لهذه العملية كإبداع أم صناعة؟ وما هو دور الناشر فيها؟

الجواب: تمر صناعة الكتاب عبر أطراف متعددة منذ أن تخلق فكرةً في ذهن المبدع إلى أن تصل كتاباً إلى يد القارئ.

والناشر – كما أفهمه – هو الحلقة الأهم في سلسلة إنتاج الكتاب، ودوره هو الدور الأكبر، بحكم توسطه في هذه السلسلة، الذي يجعله في موقع الرؤية الشاملة، يرصد الحاجات الثقافية للمجتمع، ويخطط لتلبيتها، ويعتني بالمخطوط؛ تحريراً وتنقيحاً وتصحيحاً، ويهتم بإخراجه؛ تصميماً وتنفيذاً، ويمهد لترويجه إعلاناً وتعريفاً.

والناشر الجاد لا بد أن يكون له منهجه الخاص، وطابعه المميز، وخططه النشرية المسبقة، ولا بد أن يترك بصماته على الكتاب الذي يتولى نشره، حتى إن اسم الناشر يترك انطباعاً لدى القارئ لا يقل، إن لم أقل، يفوق انطباعه عن المؤلف؛ تفوقاً أو تدنياً، وبوسعي أن أقول: إن الناشر الذي لا يمتلك الحد الأدنى من هذه المواصفات والشروط، والذي يكتفي بأن يكون حلقة وصلٍ بين المؤلف

والطابع، يدفع فواتير التكلفة، ويحمل كتبه إلى أسواق التوزيع.. هذا الناشر – مهما تعاظم الاسم الذي يحمله، وتضخم المكتب الذي يتربع خلفه – لا يشكل طرفاً ذا أهمية في صناعة الكتاب، ويمكن تجاوزه وحذفه، لأن الدور الذي يؤديه، لا يحتاج إلى أي مؤهل، ويمكن لأي إنسان أن يؤديه.

إن صناعة الكتاب، في كل حلقاتها، ومهما تعددت أطرافها تفتقر إلى الإبداع، وما لم يتسم عمل المؤلف والناشر والقارئ بالإبداع، فسيهبط مستوى الكتاب، وتستحكم أزمته، وأنا أذكر القارئ بين أطراف صناعة الكتاب، لأنني على يقين من أنه بوعيه القرائي، وقراءته الناقدة، يستطيع أن يوجه حركة النشر، ويسهم في تنشيطها وترقيتها، فيكون بذلك حلقة فاعلة في صناعة الكتاب.

س٤: يعبر مشروع (اتحاد الناشرين) عن محاولة لتنظيم عملية إنتاج وترويج الكتاب، ما هي آفاق هذا المشروع؟

الجواب: لم تستطع التنظيمات الرسمية السابقة للناشرين العرب أن تقوم بأي دور إيجابي فعال للارتقاء بصناعة النشر، والتغلب على أزماتها، والتحرك لحل مشكلاتها، واكتفت – بحكم تكوينها الرسمي – بعقد بعض المؤتمرات والندوات، وإصدار بعض البيانات والتوصيات، التي ظلت حبراً على ورق، لانعدام المتابعة، وغياب أصحاب العلاقة من الناشرين عن هذه التنظيمات.

وبتفاقم أزمة الكتاب، وتعاظم مشكلات النشر، نما لدى الناشرين العرب الشعور بالمسؤولية، والإحساس بأهمية تعاونهم وتضامنهم لإعادة الاحترام لهذه الصناعة، فتنادوا إلى اللقاء الأول لهم على هامش معرض مكتبة الأسد في دمشق في أيلول (سبتمبر عام ١٩٩٤ م)، ثم تواصلت لقاءاتهم على هوامش المعارض العربية في عمان والقاهرة إلى أن عقدوا مؤتمرهم الأول في (أبريل) نيسان ١٩٩٥م على هامش معرض لبنان للكتاب، وتم في هذا المؤتمر تكوين الاتحاد العام للناشرين العرب، وإقرار نظامه الأساسي، وانتخاب مجلس إدارته.

وقد انطلق الاتحاد الوليد منذ ذلك الحين، يعمل بفعالية ودأب على معالجة مشكلات الناشرين على أرض الواقع، في مجالات حماية الحق الفكري، والحد من

القيود المفروضة على حركة الكتاب، ووضع المعايير الواضحة لرقابة عربية مشتركة، وتخفيض الرسوم المالية والجمركية المرهقة، وتيسير سبل انتقال الكتاب العربي، وتوفير وسائط النقل البري والبحري والجوي والبريدي، وتخفيض أجورها.. وكل المشكلات الأخرى التي تعيق حركة الكتاب. وقد عني – بالإضافة إلى مشاركة الاتحادات العربية المحلية التي بلغت سبعة اتحادات – بأن يضم إلى عضويته ناشرين من البلدان العربية التي لم تتكون اتحاداتها بعد، وأن يتواصل مع الناشرين من أعضاء الاتحادات المحلية بشكل مباشر، حتى بلغت العضوية المباشرة في الاتحاد العام للناشرين العرب بضع مئات، رغم التقيد الشديد بشروط العضوية، وفي مقدمتها الممارسة الفعلية لصناعة النشر، والتوقيع على ميثاق الشرف، ودفع الاشتراكات الاتحادية والفردية التي هي المصدر الوحيد والذاتي لتمويل مصروفات الاتحاد، إضافة إلى تضحيات أعضائه، وتحملهم أعباء أسفارهم ولقاءاتهم.

وها هو ذا الآن يغتنم فرصة معرض القاهرة الدولي للكتاب ليدعو أعضاءه إلى مؤتمر استثنائي ينعقد يومي ٢٧ و ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٩٦، لمناقشة جدول أعمال حافل.

إنه اتحاد عربي واعد يعكس أهمية التضامن العربي على كل صعيد وفي كل ميدان.

س٥: يرى البعض أن إعادة طبع الكتب التراثية يعبر عن أزمة إبداعية داخل الفكر العربي، ما هي حقيقة هذه المسألة برأيكم؟

الجواب: إن لرواج الكتب موجات تعبر – إلى حد ما – عن الحالة الثقافية التي تعيشها الأمة، فرواجُ الكتب السوفييتية في بداية الستينيات كان يعكس حالة القلق والتطلع. والإقبالُ على القصص والروايات في بداية السبعينيات كان يعكس أثر الصدمة وحالة اليأس. والانكفاءُ إلى التراث في الثمانينيات والتسعينيات إنما يعكس حالة تلمُّس الذات والبحث عن الجذور، وربما كان يمثل هروباً من الواقع المشحون بالنكبات والهزائم. ففي حالة عجز المثقفين عن

الإبداع، وفي غياب حرية التعبير، يلوذون بالتراث تحقيقاً وتعليقاً، يستفتونه ويستنطقونه في مشكلاتهم الحاضرة، لينطق بالحلول نيابة عنهم، ويريحهم من مسؤولية الكلمة.

وليست المشكلة في نظري في العودة إلى التراث، إنما تكمن المشكلة في الطريقة التي نتناول بها التراث، فإذا نحن أخذناه على أنه نهاية العلم، والقول الفصل، الذي لا قول بعده، ولا مزيد عليه، نكون قد عطلنا حرية الفكر وسير التاريخ.. أما إذا عمدنا إلى التراث نعتصرُه نحذف مكرراته، ونستبعد منه ما فات أوانه، أو ثبت خطؤه، ونستخلص زبدته وأفكاره الحية لنتخذ منها مرتكزاً نستند إليه لنبني فوقه ونضيف إليه، فإننا نكون قد تعاملنا مع التراث بإبداع، وفتحنا عيناً على الماضي، وعيناً على الحاضر والمستقبل، واستفدنا من حصيلة فكر الأجداد وإبداعاتهم، لنضيف إليها إبداعنا، ونظهر شخصيتنا، ونبني لبنات تحمل بصماتنا.

س٦: هناك محاولات كثيرة لتشجيع عملية القراءة واقتناء الكتاب وسط تطور وسائل الاتصال، هل هناك مشاريع خاصة بكم في هذا الإطار؟

الجواب: تشجيع عملية القراءة، يحتاج فعلاً إلى جهود كبيرة، لا أرى أنها تلقى الاهتمام الذي تستحقه في مجتمعاتنا ووسائل إعلامنا، مما يلقي على كاهل الناشر العربي عبئاً إضافياً، ألا وهو عبء تنشيط القراءة، وتيسير سبلها للقارئ، في حين أن الناشر الأجنبي، يوجه اهتمامه إلى اختيار ما ينشر، والعناية بإخراجه، ثم تتولى أجهزةٌ أخرى مهمة التعريف بالكتب وتشجيع الناس على القراءة، ضمن منظومة ثقافية تعد القراءة حاجة عليا للإنسان كالرغيف. وإحساساً بهذا الواجب، قامت دار الفكر بدمشق، بطرح شعارٍ تبنته لعام ١٩٩٦ م هو (بناء مجتمع قارئ؛ أولوية لبناء مجتمع إنساني سليم).

وأعدت الدار لتطبيق هذا الشعار عدة إجراءات ووسائل:

أ-فعلى صعيد إنتاج الكتاب أقرت الدار سبلاً تعطي كتابها ملامح متميزة، من حيث الإخراج للغلاف وللنص الداخلي، ومن حيث العناية بالفهرسة للأعلام

والموضوعات، ومن حيث التعريف بالمؤلف والكتاب، ومن حيث إتقان الطباعة والتجليد وفحص الجودة، ومن حيث الإعلان والتعريف.

ب-وعلى صعيد التواصل مع القارئ أعدت لتشجيعه وتيسير سبل حصوله على الكتاب خدماتها التالية:

١-بنك القارئ النهم.

٢-خدمة القرّاء السريعة.

٣-نادي قراء دار الفكر.

٤-مكتبة الإعارة المجانية.

٥-بطاقة الإهداء الشخصي.

٦-الكتاب الناطق.

٧-الكتاب الإلكتروني.

٨-صواحب الكتاب: علامة توقف، استبانة رأي، بطاقة إعارة، بطاقة عنوان، إلخ..

الفصل الثامن

إحياء بيت الحكمة

طلب من الأستاذ محمد عدنان سالم تقديم مشورته حول مشروع (إحياء بيت الحكمة) في أبو ظبي، فكان أن وجه مشورته بصيغة رسالة إلى الأمين العام للمجمع الثقافي بأبو ظبي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو ظبي في ١٩٩٦/٤/٦م

سعادة الأمين العام للمجمع الثقافي المحترم

تحية طيبة وبعد:

(١)يبدو لي ضرورياً، ونحن مدعوون لتقديم المشورة حول مشروع (إحياء بيت الحكمة)، أن نتعرف أولاً على تاريخ (بيوت الحكمة)؛ نشأها، وتطورها، ومراحل نموها وانحسارها.

لقد سبق لدار الفكر في دمشق أن أصدرت في هذا الموضوع كتاباً مرجعياً هاماً بعنوان (دور الكتب العامة وشبه العامة.. في العصر الوسيط)، للدكتور يوسف العش، ترجمته عن الفرنسية، ونشرته بالعربية عام ١٩٩١م.

وأجد من المفيد أن أقتبس من هذا المرجع القيم النص التالي:

((لنلخص الآن ما قلناه: كان لدى معاوية بيت للحكمة انتقل بالإرث إلى حفيده خالد بن يزيد، وهذا ما أغناه ليس بكتب الكيمياء التي نسبت إليه خطأ، بل بالترجمات التي أنجزت له، ودعا إليه الحكماء (الفلاسفة) والمهرة، ثم اختفى اسم (بيت الحكمة) من بعده، لكن مكتبة الخلفاء الأمويين تطورت، فكان لها نساخها وأمناؤها. وقد جعل المنصور والمهدي يجلبان مؤلفات الروم ويسلمانها للترجمة، واهتما بالمنجمين، وربطاهم بعملهم، ووقف الرشيد عنايته على الكتب التي ورثها عن أبيه، وزاد فيها من الكتب التي حصل عليها خلال فتوحاته في بلاد الروم، وأسس بيت الحكمة بشكله النهائي في زمنه، فقد عين فيه منجم،

ومترجمون يرأسهم أمين الترجمة، وظهر بيت الحكمة فجأة لأعين المؤرخين في زمنه، وقد جاؤوا متأخرين قليلاً ليكشفوا عن أصوله.

وفاق المأمون أباه، وكان إماماً في كل فن.. وألف بعض الكتب والرسائل، وتمم ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، واستخرجه من معادنه)) [العش: دور الكتب العامة وشبه العامة، ص ٥٨].

((وهكذا نستنتج أن (بيت الحكمة) كان مركز الترجمة، كما كان أحياناً مركز التأليف، وأن مكتبة هذه المؤسسة تكونت من السريانية. وأتاحت تلك المجموعة فرصة لوجود مجموعة أخرى عن طريق الترجمة. وكان هناك مجموعة ثالثة من الكتب المؤلفة للخليفة. وجاءت مجموعة رابعة من مكتبات الخلفاء القديمة والمجموعة الخامسة كتبها النساخ، مثلما فعل علان بن الحسن الشعوبي)) [المرجع السابق: ص ٦٧].

ويروي لنا الدكتور العش في كتابه هذا أن المأمون كانت له بيوت حكمة متعددة [ص٧٧]، وأن ثمة تشابهاً بين المتحف وبيت الحكمة [ص٧٩]، وأن بيوت الحكمة كانت ملاذاً للمعتزلة [ص٨٤]، ومركزاً للشعوبية [ص٨٥]، وأن من أهدافها تنمية النشاطات العلمية، بدءاً من جمع الكتب وترجمتها، وإجراء الدراسات والإنتاج العلمي، وإقامة عدد من العلماء للعمل فيها وإجراء الأرزاق لهم، وأن المكتبة عنصر أساسي فيها [ص٨٧].

(٢)بعد هذه اللمحة التاريخية عن (بيت الحكمة)، لابد لي من عقد مقارنة بين الظروف التي نشأ فيها (بيت الحكمة)، والظروف الحاضرة التي يراد فيها إحياؤه للوقوف على مواطن الائتلاف أو الاختلاف بينها، والتعرف على ما يجب المحافظة عليه، وما يجب تعديله من مناهج هذه المؤسسة وأساليبها.

ففي جانب الائتلاف والتشابه، نجد في الحالين شعوراً بالعوز المعرفي، ورغبة ملحة بتحصيل العلوم والمعارف، مهما تنوعت مصادرها وبعدت شقتها، مما يؤكد الحاجة إلى (بيت الحكمة)، في الحالين، وسيلة للارتقاء والنهوض.

وفي جانب الاختلاف والتباين نجد الأمة الأولى في الحالة الأولى (التأسيس) ، قد توفر لها المناخ الثقافي الملائم لتلقي المعلومات وتمثلها بالحيوية والإبداع والحركة الدؤوب، مما أهَّلها لأداء دور حضاري فعال ومشهود في التاريخ البشري.

بينما هي في حالتها الحاضرة تعاني من تعثر حضاري، يضعف من طاقتها على تمثل المعلومات التي تتفجر من حولها، ويعيق قدرتها على هضمها وصهرها لإعادة إنتاجها، ويطبع أعمالها بسمات التقليد والتبعية والكلالة والركود، تلك الصفات التي لا تؤهلها للعب دور يتجاوز الاستيراد والتكديس لمعلومات لم تنبت في أرضها، ولم تسهم في إنتاجها.

فرق كبير بين الحالين..

لا أقول ذلك للتقليل من أهمية مشروع (إحياء بيت الحكمة)، والتهوين من شأنه أو التثبيط عنه.. معاذ الله.

إنما أقوله حفزاً للهمة، وبياناً لثقل العبء الملقى على كاهل من يعمل مخلصاً وجاداً للنهوض بهذا المشروع، ألا وهو توفير المناخ الملائم للاستفادة من نتائج أعمال بيت الحكمة، وجني ثمراتها.. ذلك العبء الذي لم يكن مؤسسو بيت الحكمة يحملونه، لأنهم وجدوا أنفسهم يعيشون في ظلاله، ويستنشقون عبير نسائمه.

ما هو هذا المناخ الثقافي الملائم؟!

إنه الأمر الإلهي الأول، لكل أمة تريد أن تنهض: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ٩٦/١].

وما مقوماته ومكوناته؟! إنها:

-إعلاء شأن العقل، وتأكيد مسؤولية الإنسان عن استخدامه: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ١٧/٣٦].

-إرساء حرية الاعتقاد والتعبير، حتى لا يضارَّ إنسان بسبب رأيه ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].

-تحرير الإنسان من كل أشكال التقليد والتبعية؛ الآبائية والدينية والاجتماعية: ﴿قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٧٤]، ﴿رَبَّنا إِنّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦٧].

-إلغاء قوانين الحجر والوصاية على الأفكار: ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنا الْحِسابُ﴾ [الرعد: ١٣/٤٠].

-فتح أبواب الحوار، والإصغاء إلى الرأي الآخر، ومناقشته دون مسلمات مسبقة، ﴿وَإِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣٤/٢٤].

إن نهوض مشروع (بيت الحكمة) بعبء توفير المناخ الثقافي الملائم – كما يخيل إلي – ضروري جداً لنجاح المشروع، والوصول به إلى أهدافه وغاياته المرجوة، ويجب أن تواكب جهود توفير المناخ، الجهود العلمية التي يقوم بها (بيت الحكمة).. وذلك أن (بيت الحكمة) لم يغب إلا بسبب فقدان هذا المناخ، وأن إحياءه وبعثه من جديد لا يكون إلا بتوفير هذا المناخ، وبذلك يكون مشروع (إحياء بيت الحكمة) تياراً ثقافياً جديداً وفاعلاً، وليس مجرد دار جديدة للنشر، لا تضع في برنامجها تشكيل شخصية ثقافية متميزة للأمة.

(٣)أما مشروع (بيت الحكمة): نظامه، وأهدافه، وأطره، ووسائله، وهيكله التنظيمي، ومناهجه، فهي أمور فنية يمكن لأية مؤسسة متخصصة أن تقوم بإعداده، وتوفير الدراسات المطلوبة له، لطرحها على الهيئات الاستشارية ومناقشتها.

وإن كان لا بد من إثارة نقاط، تبدو أساسية، فربما يكون فيما يلي بعض الملامح:

١-تحديد المجالات: التأليف، التحقيق، الترجمة، إعداد الموسوعات والمعاجم، النشر، التوزيع، المكتبات العامة.

٢-تحديد المناهج التي تميز عمل المؤسسة، وتبرز ملامح شخصيتها التي ستنعكس على منتجاتها من حيث التنقيح والتوثيق ودقة المعلومات وصحتها.

٣-الرصد لمستجدات العلوم والأفكار، وحسن الاختيار والتقويم لتلبية الحاجات الثقافية.

٤-السرعة في نقل المعلومات، التي باتت وسائل الاتصال الحديثة وتقنياتها توفرها على أحسن وجه.

٥-صيانة حقوق الملكية الفكرية، وإعداد عقود نموذجية لتنظيمها.

٦-التخطيط البعيد والمرحلي لتحقيق الأهداف.

إن دار الفكر في دمشق لتضع كل إمكاناتها وتجاربها في تصرفكم، وهي مستعدة لتقديم كل مشورة للإسهام في هذا البناء الجليل الذي نتمنى له كل النجاح والازدهار.

محمد عدنان سالم

المدير العام

بناءً على دعوة من اللجنة التحضيرية لاتحاد الناشرين السوريين، الموجهة إلى الناشرين العرب وتجمعاتهم المهنية، لمناقشة أوراق العمل المقدمة من اللجنة المذكورة، تم انعقاد اللقاء الأول للناشرين العرب، في المركز الثقافي العربي بدمشق وصدرت عنه التوصيات التالية:

١-إقرار ميثاق الناشرين العرب ودستور المهنة.

٢-إعداد عقد نموذجي للنشر، يلتزم به الناشرون في علاقتهم مع المؤلفين، يكون فيه شيء من المرونة متروك لاختيار المتعاقدين حسب طبيعة العلاقة بينهم.

٣-العمل على استصدار القانون الرادع لحماية حقوق الإبداع، وحث الدولة على التوقيع على الاتفاقيات العربية والدولية المتعلقة بهذه الحقوق.

٤-العمل على تبسيط الإجراءات القضائية المتعلقة بدعاوى القرصنة.

٥-العمل على إلزام الجهات الرسمية التي تطلب الكتب سواء بواسطة المناقصات أو العقود بالتراضي، باشتراط إبراز ما يثبت موافقة الناشر الأصلي لهذه الكتب على تقديمها.

٦-تشكيل لجنة محكمة في كل اتحاد للناشرين، تتكون من خبراء مهنيين، ويكون لها صلاحيات تنفيذية، ترفع إليها شكاوى التزوير، وتتولى التحقيق فيها واتخاذ الخطوات والقرارات الملائمة بشأنها.

٧-تكوين مكتب قانوني يضم محامين قديرين، يتولى الدفاع عن حقوق الناشرين والمؤلفين، وملاحقة قضايا التزوير وتقديم المشورة القانونية للاتحاد والأعضاء.

٨-تبني الاتحاد لقضايا التزوير وتمويل الملاحقة القضائية بشأنها نيابة عن أصحاب الحقوق واعتبار الاعتداء على حق أي ناشر اعتداء على الناشرين جميعاً.

٩-الاتصال بجميع الأطراف المعنية بإنتاج الكتاب، من مؤسسات الصف والتصوير والطبع والتجليد وأصحاب المكتبات ومكاتب الشحن ومصانع التغليف، وإطلاعهم على مشكلات النشر والتعاون معهم لاستئصال شأفة القرصنة، والعمل على معاقبة الذين يتعاونون مع القراصنة منهم.

١٠-فتح سبل لكل ناشر لتدوين مدى التزامه بحقوق المؤلف، وتسجيل شكاوى المؤلفين عليه إن وجدت، والتحقيق فيها وتشجيع الناشرين الملتزمين بإذاعة تجاربهم ومكافأتهم.

١١-إصدار نشرة عن الاتحاد تحكي نشاطه، وتعكس نشاط أعضائه وإصداراتهم، وتوجه مسارهم نحو الأفضل، وتبصرهم بحقوقهم وتبين لهم المخاطر الناجمة عن جرائم التزوير.

١٢-توثيق الصلة بين الاتحادات، وتبادل المعلومات حول قضايا التزوير، وإصدار قائمة سوداء بأسماء المزورين الذين يكررون فعلتهم رغم تحذيرهم وتقديم النصح لهم.

١٣-توقيع اتفاق مع اتحاد الناشرين في كل البلدان يؤكد التزام كل اتحاد في بلده بملاحقة قضايا التزوير التي تثبت في بلد اتحاد آخر.

١٤-العمل على إنشاء إدارة خاصة بحماية حقوق الإبداع، قد تكون تابعة لوزارة الإعلام أو لوزارة الثقافة، أو للمكتبة الوطنية، أو لاتحاد الناشرين في كل قطر، تسجل لديها عقود النشر ويعد هذا التسجيل توثيقاً لها، ويكون لهذه الإدارة صلاحية الفصل في الخلافات الناجمة عنه.

١٥-العمل على تنشيط (اتحاد الناشرين العرب) وإخراجه من عزلته وكلالته ليقوم بدور فعال في توحيد جهود الاتحادات المحلية في مواجهة مشكلاتها الآخذة بالتفاقم ولاستعادة (الاحترام) الذي أصبحت الثقافة وصناعة الكتاب ومهنة النشر مفتقرة إليه في الواقع الراهن..

١٦-الطلب من الجهات المعنية في البلدان العربية التنسيق فيما بينها لتحديد مواعيد للمعارض غير متناقضة أو متداخلة مما يتيح للناشر المشاركة في هذه المعارض جميعها.

١٧-تسهيل شروط المشاركة في المعارض، وتخفيف تكاليفها، وتقديم خدمات وتسهيلات جدية ومفيدة للناشرين.

١٨-إعفاء الكتاب بشكل عام والكتاب المشارك في المعارض خاصة من جميع الرسوم المالية والضرائب والنفقات التي تحمله أعباء مالية إضافية.

١٩-مطالبة السلطات العربية المسؤولة بتخفيف تكاليف أجور شحن الكتاب وخاصة الشحن الجوي وكذلك أجور الشحن البريدي.

٢٠-تخفيف الرقابة على الكتاب وتحديد معاييرها وضوابطها وإلغاؤها بالنسبة إلى الكتاب المشارك في المعارض.

٢١-تعميم هذا المحضر ومرفقاته على جميع اتحادات وتجمعات الناشرين العرب، لتقوم بتوزيعه على كل الناشرين والوزارات والمؤسسات الثقافية كل في بلده، آملين من الاتحادات كلها المشاركة في اللقاءات القادمة لأهمية الأمر.

٢٢-إبلاغ مديري المعارض وكل المعنيين بشؤون الثقافة عن وقائع التزوير التي تثبت للجنة المتابعة المنبثقة عن هذا اللقاء، والمطالبة بأخذ الإجراءات الرادعة بحق الفاعلين.

٢٣-تشكيل لجنة المتابعة من ممثلي الاتحادات التي شاركت في هذا اللقاء، وأي اتحادات تنضم لهذا اللقاء مستقبلاً.

٢٤-تكليف اللجنة التحضيرية لاتحاد الناشرين السوريين بمتابعة توصيات هذا اللقاء ودعوة لجنة المتابعة لعقد جلسات عند الضرورة.

٢٥-دعوة الناشرين والتجمعات المهنية التابعة لهم لحضور اللقاء الثاني للناشرين العرب الذي سينعقد في عمان على هامش معرض عمان الدولي الرابع للكتاب.

والله الموفق